لوتس

روايات مصرية للجيب

6

في أرض الأقزام

Looloo
www.dvd4arab.com

لـوتـس

فى قلب التاريخ ، تسكن حضارة مصر الفرعونية .
بكل جمالها وقوتها .
حقائقها وأساطيرها .
نورها ونارها .
من قلب النيل نبعت هذه الحضارة .
كزهرة لوتس عطرة الرائحة .
ندية الملمس .
متألقة الألوان .
وإلى قلب الماضى ، نبحر فى قارب من البردى .
نجوب أجواء زمان ولّى .
مخلفًا آثاره التى لا تزول .
شامخةً فى وجه الدهر .
وفى وجوه حاملى معاول الهدم والتشويه .
إنها زهور أينعت منذ فجر الوجود .
فتفتحت أوراقها .
وانتشرت أنوارها إلى كل الحضارات الإنسانية الأخرى
إنها زهور لوتس .
فى قلب مصر .. القديمة ..

محمد سليمان

(١)

كان هناك قزم ..

وكانت هناك أرض للأقزام ..

كانت أرض الأقزام تقع فى منطقة بعيدة ، ليس من السهل الوصول إليها أبدًا ، عبر الصحراء والجبال والجليد والأنهار والشلالات والغابات ..

والمخاطر الجسيمة ..

تقع أرض الأقزام فى واد خفيض بين جبلين مما يخفيها عن الأنظار ، وهى عبارة عن مرج أخضر يشقه النهر الصغير إلى نصفين ؛ النهر الصغير الذى ينبع من حيث لا يدرى أحد ، ويصب فى الأفق البعيد خلف الجبال ، حيث لا يدرى أحد ..

البعض يظنون أن أرض الأقزام ـ من فرط الحكايات التى تروى عنها ـ ليست إلا أسطورة نسجها خيال خصب ، لكن ..

لكل أسطورة نصيب من الحقيقة ..

ولأرض الأقزام أيضًا نصيبها من الحقيقة ..

إنها الواحة التى تنشق عنها الصحراء فجأة خلف الجبال الشاهقة التى تناطح السحاب ، والجنة التى تسكن أحلام

ساكنى جحيم الأرض ، والراحلين فى عذاب التجوال الأبدى ..

تشرق الشمس على أرض الأقزام طوال العام ، ولا تختفى خلف السحب حتى فى عز الشتاء ؛ لأن أرض الأقزام لا تعرف فصولا أو مواسم طقسية ، ليس هناك صيف قائظ ولا خريف حزين ولا شتاء بارد ، فقط الربيع المزهر ، والربيع المزهر وحده طوال العام ..

تشرق الشمس فى أرض الأقزام ، فينعكس الوهج الذهبى على صفحة مياه نهر الفردوس ، ويقال إن هذا سبب أنك تعجز عن رؤية وجهك على صفحته الرائقة ..

فى النهر لا توجد تماسيح ، فقط الأسماك التى تتقافز من حولك وأنت تسبح ، أو تقوم بنزهة على قارب من خشب ، لا توجد أيضًا أحراش بردى أو زهور لوتس ، فقط المياه والأسماك وأنت ، والشمس تهديك قبلاتها الدافئة من قلب السماء البعيدة ..

على ضفتى النهر يمكنك أن ترى كل أنواع الحيوانات ، تعيش فى سلام وتآخ ، الأسد يرعى بجوار الأرنب ، والفيل يحتضن القطة ، والغزلان ترد الماء بجوار وحيد القرن ، وفوق الجميع طيور من كل صنف ولون ، تغرد أناشيدها الصباحية العذبة ..

عندما تتعب الطيور من التحليق تحط على أكتاف النسيم ، أو على أكتاف الحيوانات ، أو على أكتاف الأقزام ، أو تحط

لتلقط الرزق من الحقول اليانعة بالمحاصيل ، دون خوف من زجر ، أو رعب من عيون خيال الحقل وذراعيه الثابتتين ، فى أرض لا وجود فيها لخيال الحقل ولا يحتاج أحد لصنعه ..

فى أرض الأقزام يحمل الهواء روائح الزهور المطلة من كل ركن ، والمزروعة فى كل بيت ، والمحمولة فى كل يد ، والأشجار فى أرض الأقزام دانية تحمل الثمار لكل جائع ، والظل لكل نعسان ، والحب لكل محروم ..

الحب فى أرض الأقزام مشاع للجميع ، لكن هذا ليس ما يميزها ، وليس ما تناقلته الهمسات عن سر تفردها ..

ما لن تراه فى مكان آخر سوى أرض الأقزام ، هو الألوان ..

الألوان الحقيقية التى تكحل عينك أينما وجهتها ..

الألوان الحقيقية التى تبتسم فى قوس قزح ، وتضحك على تويجات الزهور ، وتغنى على أجنحة الفراشات ، وتلون القلوب بالحب والحياة ، حتى تغرب الشمس ، ويأتى الليل ، فينام الجميع فى انتظار صباح آخر ملىء بالبهجة ..

وبالألوان ..

* * *

(٢)

كانت هناك أرض للأقزام ..

وكان هناك قزم ..

(سنوب) كان واحدًا منهم ، ولم يكن قد حمل اسمه هذا بعد ، ففى أرض الأقزام لا توجد أسماء ، ولا يحتاج الأقزام إلى أسماء يتنادون بها ، تكفيهم نظرات العيون ، ومصافحات الأيدى ، وجلسات الأغانى والسمر فى النهارات المشمسة والليالى القمرية الجميلة ..

فى أرض الأقزام يعرف الأقزام بعضهم جيدًا ، التاريخ والعائلة ومكان السكن والأغانى المفضلة ، ولا يحتاجون لأكثر من هذا حتى لا تتعقد حياتهم البسيطة ..

(سنوب) قبل أن يحمل اسمه هذا ، كان واحدًا منهم ، مجرد قزم عادى ، قصير القامة ، واسع العينين ، كبير الرأس ، برىء الملامح ، باسم المحيا ..

(سنوب) كان فى أوج الشباب ، تجاوز عمره المائة عام بقليل ، ففى أرض الأقزام يعمر الأقزام طويلاً بالنسبة لنا نحن البشر طوال القامة ..

ومن يعش أكثر ، تثقل الحكمة كاهليه ..

(سنوب) كان مرحًا مثل الجميع ، منطلقًا مثل الجميع ، يسكن أحد البيوت المكعبة المتشابهة التى يسكنها الجميع ، والتى تطل على صفحة النهر فى تماثل هندسى منظم جدًا ، يشارك فى أغانى النهار والليل ، ويحضر احتفالات العيد وولائم الأعراس ، ويلعب مع الأطفال ، ويقبل يدى أبويه قبل أن يخلد إلى فراشه ، ليحلم بها ، وبيوم زواجه منها ، ذلك اليوم الذى اقترب كثيرًا ..

الحب فى أرض الأقزام زهرة ينعم عليها الجميع بالرى والاهتمام حتى تكبر ، فتثمر زواجًا وأطفالا واستمرارًا لموكب الحياة السائر فى طريق الزمن ..

وهى كانت مثله ، تشبهه ، ولم تكن تحمل اسمًا ، ولأنها لم تختر الرحيل معه فقد ظلت بلا اسم ، رغم أنه أطلق عليها اسمًا فيما بعد ، وظل هذا الاسم سرًا بينه وبين نفسه ، لم يعرف به أحد حتى يومنا هذا ..

كان حبهما مباركًا من الجميع من يوم ولادتهما ، وكان الجميع ينتظرون يوم عرسهما بفارغ الصبر ، ربما أكثر منهما ..

ففى أرض الأقزام ليس الحب عملة صعبة ، وإنما هو فيضان بين القلوب دون سدود ، فيضان يغمر أرض المشاعر ،

ليقتل الحسد والحقد والكراهية والعنف والخداع والكذب والخيانة ، ولا يبقى فى التربة إلا بذور الحب ، التى تنبت زهورًا يانعة لا تموت ..

الأقزام أيضًا شفافون جدًا ، مرهفو الحس إلى حد بعيد ، إنهم يرون أمسهم ويومهم ويحلمون بغدهم فى أمل ، وفى ثقة ، وكان الجميع واثقين أن زواج (سنوب) قبل أن يصبح هذا اسمه من حبيبته التى ظلت بلا اسم سيتم ، اليوم أو غدًا ، المهم أنه سيتم ..

الجميع رأوا يوم العرس فى أحلامهم قبل أن يتم ، أحلام نوم وأحلام يقظة ، والحلم هناك ليس مجرد بضاعة استهلاكية ، إنه جوهرة يعرفون فن الحفاظ عليها ، وصياغتها ..

فى أرض الأقزام يكفيك النظر فى عين محدثك حتى تعرف عنه كل شىء ، ستداهمك الرؤيا فى حلم فتجد نفسك وقد امتزجت به ، صرتما واحدًا ، وصرت تعرف عنه ربما أكثر مما يعرف هو عن نفسه ، ويقال إن نقاء الهواء هو ما أعطى الأقزام هذه القدرة الاستثنائية الخارقة ..

القدرة على الحلم ، والرؤية ، والمعرفة ..

كان الجميع ينتظرون ، وكان (سنوب) ينتظر ، لكن الحلم الذى داهمه فى تلك الليلة قلب كل الأمور رأسًا على عقب ..

لقد رأى نفسه يقطع الصحراء ممسكًا بفرع شجرة جاف ، شفتاه مشققتان ، عيناه محمرتان ، العاصفة الرملية تكاد تقتلعه من قدميه المنغرستين فى الرمال ، إنه يحاول مواصلة المشى فى سبيل الوصول إلى هدف لا يعرفه ، غير أنه سقط فى النهاية ..

صحا (سنوب) بعينين مذهولتين ، ومن يومها انقلب حاله ، وانقلبت كل الأمور رأسًا على عقب ..

عافت نفسه الطعام ، والغناء ، وحضور الولائم والاحتفالات ، بدا يميل إلى الانفراد بنفسه فى غرفته بالمنزل المكعب ، نحل جسده وفقد حيويته ومرحه ، وسمعه أبواه يبكى فى الليل منفردًا أكثر من مرة ..

قال أبوه لأمه فى إشفاق :

ـ إنه حلم بالتأكيد ..

قالت الأم وهى تضع يدها على صدرها فى خوف :

ـ أخشى أن يرحل ، هذه علامات الرحيل ..

تنهد الأب :

ـ قال معلمه إنه إن رحل ، فسوف يعود ..

اكفهر وجه الأم :

ـ الراحلون لم يعد منهم أحد ..

تنهد الأب :

ـ هكذا قال المعلم ..

اعتصرت قبضة الألم صدر الأم ، وغامت عيناها بالدمع قبل أن تسأله :

ـ ولماذا لم يأت المعلم لرؤيته ؟!

تنهد الأب :

ـ يقول : إنه عندما يحين الوقت ، سيذهب ابننا إليه ، ويخبره بكل شىء ..

وتناهى إليهما صوت النحيب من داخل الغرفة الموصدة ، يمزق كبد الليل الطويل ..

* * *

(٣)

عندما حان الوقت ، ذهب (سنوب) إلى معلمه فى داره ، ونظر إلى لحيته البيضاء القصيرة ، وتردد طويلاً قبل أن يتحدث ..

قال المعلم :

ـ قل ما أتيت لقوله ..

قال (سنوب) قبل أن يصبح هذا اسمه ، دون أن يقوى على رفع عينيه فى عينى معلمه الثاقبتين :

ـ سأرحل ..

قال المعلم وهو يوصد كتابًا كان يقرأ فيه :

ـ قرأتها فى عينيك قبل أن تقوى على رفعهما لتواجهانى ..

رفع (سنوب) عينيه أخيرًا :

ـ اليوم فقط حسمت ترددى ، واستطعت التوقف عن البكاء ..

قال المعلم :

ـ وهل تملك شجاعة الرحيل ؟!

قال (سنوب) :

ـ لا تنقصنى الشجاعة ..

ـ ولا الحكمة ؟!

ـ ولا الحكمة ..

أشار المعلم بيده إلى الخارج :

ـ أأنت مدرك لما قد تواجهه خلف الجبل الذى يخفى أرضنا عن عيون المارة والمتطفلين ؟!

نظر (سنوب) إلى حيث يشير ، وقال :

ـ يجب أن أذهب إلى الصحراء حتى تنطفئ جذوة الشوق فى قلبى ، هكذا أخبرتنى الرؤية ، وهكذا أمرنى الحلم ..

سأله المعلم مستغربًا :

ـ وتترك نعيم الفردوس إلى لهب الجحيم ؟!

تنهد (سنوب) ، وقال مخفضًا عينيه من جديد :

ـ أريد التأكد من أن هناك جحيمًا ، كما أريد التأكد من أن هنا الفردوس ..

سأله المعلم فى تحذير :

ـ ألا تخشى أن تذهب فلا تعود كما حدث لكل من ترك أرض الأقزام ؟!

تنهد (سنوب) ، وقال مخفضًا عينيه أكثر :

ـ سيكون قدرى ، كما كان قدرهم ..

ـ ستعود ..

قالها المعلم وهو يشعل نار الموقد فى ركن داره ، ثم التفت برأسه إليه مردفًا ببسمة أبوة :

ـ .. ستعود .. أستطيع قراءتها فى عينيك ، مختبئة خلف نيران الرغبة فى الخلاص ..

أشرق وجه (سنوب) ، وتبخر الاحمرار من عينيه :

ـ سمحت لى بالرحيل إذن ؟!

اقترب منه المعلم وربت على كتفه قائلاً بعد ضحكة قصيرة :

ـ كأنك ستبقى لو لم أسمح لك ..

لم يهنأ (سنوب) بتمرده ، فقد تسامح معه معلمه إذ ربت على كتفه بقوة أكبر :

ـ .. أعتقد أنك قد أعددت عدتك بالفعل ..

وكان ـ بالفعل ـ قد أعد عدته ..

* * *

(٤)

حملت الريح النبأ على أجنحة السرعة ، وسرى كالنار فى هشيم أرض الأقزام ..

(سنوب) يستعد للرحيل ..

لم يستطيعوا منع أنفسهم من الدهشة ، تلك الدهشة التى تصيبهم كلما سمعوا برغبة أحدهم فى الذهاب إلى ما خلف الجبل ، فلماذا يجشم البعض أنفسهم كل هذا العناء ، وهنا حياة رغدة جميلة هانئة لا يعكر صفوها معكر ؟!

لم يستطيعوا منع أنفسهم من الحزن والإشفاق على (سنوب) المسكين الذى ضللته أحلامه ، ودفعته إلى طريق الذهاب الذى لا يعود منه أحد ..

لم يستطيعوا منع أنفسهم من تذكر كل من رحلوا ، لم يكونوا كثيرين لذا كان يسهل تذكرهم ، جميعهم راودهم الحلم نفسه ، وجميعهم استجابوا له ، ومن يوم اختفائهم خلف الجبل اختفت معهم كل أخبارهم ، ولم تبق منهم إلا الذكرى ..

ماذا حدث للقزم الجميل الذى كانوا ينتظرون حضور حفل عرسه قريبًا ؟!

وأى مصير سوف تلاقيه الجميلة التى سوف يتركها ؟!

كل الجميلات التى تركن من قبل لم يتزوجن بعد الرحيل ، وقضين الحياة فى وحدة وتهرب من نظرات الإشفاق والتعاطف ، حتى زحفت التجاعيد على صفحة الجمال الرائق ، وماتت أكثر من واحدة ، أما الباقين فيجتمعن يومًا فى الأسبوع عند سفح الجبل حيث رحل الأحباء من سنين بعيدة ، ويتذكرن ، ويغنين أهازيج الوداع الحزينة ..

ترفرف الأهازيج فى يوم الحزن ـ كما يطلقون عليه فى أرض الأقزام ـ إلى البيوت ، فلا يقام يومها عرس ، ولا تولم وليمة ، ولا يغنى أحد أغنية حب أو قصيدة عشق ..

على الجميلة إذن أن تنضم إليهن ، وأن تشاركهن الحزن والألم والمراثى ..

سمع (سنوب) كل الأقاويل ، لكن عزمه على الرحيل لم يلن ، وفى الليلة السابقة لرحيله ، خرج إلى النهر ، وكان يعرف أنه سيجدها هناك ، وحيدة ، مهمومة ، تنظر إلى القمر المكتمل وتبوح له وحده ـ فى صمت ـ بما تخفيه نفسها ..

اقترب منها ، وهمس :

ـ يقولون إن من يذهب لا يعود ، لكنى سأعود .. هكذا قال لى معلمـ ...

قاطعته :

ـ ش ش ش ش .. اصمت ..

ثم نظرت إليه لتملأ عينيها منه ، قائلة دون أن تنجح فى رسم ابتسامة على وجهها :

ـ .. دعنى أسمع منك صمتك ، فهو أبلغ مما يمكن أن يقوله لسانك مهما حاول ..

التقت النظرات ، قرأ فى عينيها رجاء أخيرًا بالبقاء ، لكنه كان قد عقد العزم وانتهى الأمر ..

مضت الليلة ، وفى فجر اليوم التالى ، عندما كان الأفق رماديًا قبل شروق الشمس ، عقد (سنوب) أغراضه داخل قماشة كبيرة ، وخرج دون أن يودع أباه وأمه ، فهو لن يحتمل الدموع والتنهدات والتوسلات الأخيرة ..

لن يحتملها أبدًا ..

خرج مبكرًا قبل شروق الشمس حتى لا يلاقى أحدًا من أهل أرض الأقزام ، فهو لن يحتمل النظرات المتعاطفة واللائمة والمستنكرة ..

لن يحتملها أبدًا ..

لكن ، عندما بلغ سفح الجبل حيث يتعين عليه الصعود وعبور الجهة الأخرى ، وجدهم جميعًا واقفين فى انتظاره ..

أهل أرض الأقزام جميعًا ، معلمه وأبوه وأمه ، بل وحتى هى ، كلهم خرجوا من أجل وداعه ، وجميعهم يرفعون عقائرهم فى تباشير الفجر الأولى بأغنية حزينة ..

جاهد لكبت دموعه ، وشاهد العجائز الذين ذهب أبناؤهم مثله قبل سنين طويلة ولم يعد أى منهم ، واقفات بملابسهن الداكنة ، ودموعهن تنهمر وهن يغنين ويلوحن بمناديلهن ..

نظرت إليه حبيبته نظرة أخيرة من وراء دموعها ، ومدت إليها يديها وهى تغنى ، لكنه التفت إلى الجهة الأخرى ، وبدأ فى صعود الجبل ، تشيعه أغنية الوداع ..

والدموع ..

والألم ..

لم يلن عزمه للحظة واحدة ، وعندما بلغ قمة الجبل ، ألقى بنظرة أخيرة على الأقزام المتحلقين بالأسفل ، واستدار مواجهًا الجهة المقابلة ..

وعندما فعل ، لم يجد أمامه إلا الصحراء ..

الرمال الممتدة حتى الأفق البعيد ، دون أمل فى النجاة ..

كانت هذه هى المرة الأولى التى يفكر فيها فى التراجع ، والعودة إلى أهله الواقفين بالأسفل ، والارتماء فى أحضان حبيبته وإعلان زواجهما اليوم قبل الغد ..

فكر بجدية ، لكنه ألقى الفكرة خلف ظهره ، عندما تذكر الحلم ، وأحرقته نار الرغبة كوحش صحا فى داخله ، فبدأ فى هبوط الجبل على الفور ..

كل الذاهبين لم يعودوا فى لحظة التراجع الأولى ، خوفًا من الفشل ..

كل الذاهبين لم يعودوا أبدًا ..

لكنه سيعود ..

هكذا قال المعلم ..

* * *

(٥)

كم مر من الوقت ؟!

لابد أنه وقت طويل ..

نفد الزاد ، وتبخر الماء ، وأنّت العظام ، وتمزق الرداء ، وانتفخت القدمان من السير ..

كم مر من الوقت ؟!

لابد أنه وقت طويل ..

الجوارح تحلق فى السماء فى انتظار سقوط فريستها ، وفريستها على وشك السقوط ..

كم مر من الوقت ؟!

لابد أنه وقت طويل ..

لم تعد العودة إلى أرض الأقزام خيارًا مطروحًا بعد أن فقدت الاتجاهات معناها ، وبعد أن أصاب الإنهاكَ الراحلَ إلى حقيقة لا يعرفها ..

كم مر من الوقت ؟!

لابد أنه وقت طويل ..

الأفق الرملى ما زال ممتدًا إلى حافة الأبدية ، لا تبدو له نهاية ، و(سنوب) مازال مصرًا على مواصلة رحلته ؛ لأنه لم يعد يملك سواها ..

كم مر من الوقت ؟!

لابد أنه وقت طويل ..

كان (سنوب) موقنًا أن ما يراه مجرد سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، لكنه واصل بكل ما تبقى فى داخله من قوة تؤجهها نيران الحلم الذاوى ، وعندما بلغ مقصده تبين له أنه لم يكن سرابًا ، بل بئر حقيقية ..

بئر فيها ماء ، يستطيع أن يرى انعكاس وجهه فيها رغم بعد المسافة ، ما عليه إلا أن يرفع الماء لأعلى ، أو أن يقفز إليه بالأسفل ..

وقف (سنوب) على حافة البئر ، وكاد يقفز إليها هاتفًا فى سعادة من عثر على الحياة فى بطن الموت ، عندما أتى الصوت من خلفه :

- احترس ..

الشمس فى الصحراء ليست كالشمس اللطيفة فى سماء أرض الأقزام ، إنها سوط لاهب من الحرارة تشوى الوجه

والرأس والرمال ، وربما تجعلك ترى وتسمع ما هو غير موجود ، مثل هذا الصوت الذى التفت (سنوب) ليرى صاحبته ..

لكنه لم يكن محض تهيؤات ..

كانت المرأة الجميلة المتشحة بالسواد ، والتى أتت من العدم ، تقف عاقدة ساعديها ، وكأن قدميها لا تحملانها ، كأنها تطفو على بحيرة الهواء فوق الرمال ، وتقول مرة أخرى :

ـ .. احترس ..

قال (سنوب) وهو يشير إلى الماء من خلفه :

ـ مم ؟! لو كان الماء مالحًا،فسأشربه ، إن ظمئى يدفع بى للجنون ..

افتر ثغر المرأة الجميلة عن بسمة أثارت طابع الحسن على ذقنها ، وقالت :

ـ ماذا إن كان مسمومًا ؟!

أظلم وجه (سنوب) ، وخفض عينيه مرددًا فى خيبة أمل عظيمة :

ـ ماء مسموم ؟!

ثم إنه هتف فى يأس :

ـ .. وإن يكن ، سأموت فى كل الأحوال ..

قالت وبسمتها تضىء أكثر :

ـ إن كنت ميتًا فى كل الأحوال ، فحاول على الأقل أن تموت بحكمة ..

رفع إليها عينين تسألان :

ـ ماذا تعرفين أنت عن الحكمة ؟!

ـ ليس أكثر مما تعرفه ، فهى لم تمنعنى من مغادرة أرضى فى سبيل البحث عن حلم ، أو قل عن وهم كبير !

نظر نحوها مندهشًا ، قائلاً والجفاف يجرح حلقه :

ـ من أنت ؟! إنى عاجز عن رؤيتك أو فهم حقيقتك ..

قالت وعيناها تلمعان بالحياة :

ـ لأنى أحيط نفسى بسياج من الغموض ، لن تخترقه أحلامك أبدًا ..

ضيق عينيه وسألها :

ـ هل أنت ساحرة ؟!

أجابته فى خبث :

ـ ربمـا ..

هتف فيها مستجديًا :

ـ دلينى إذن على طريق العودة ، لقد فقدت اتجاهاتى وضللت مسلكى ، وأريد العودة إلى أرضى .. إن الرحلة أشق مما كنت أتصور ..

قالت فى خبث أشد :

ـ والمقابل ؟!

مد يده فى خرجه ، وأخرجها هاتفًا فى لهفة :

ـ لم تبق لدى سوى هذه التفاحة ..

كانت تفاحة أصابها العطب ، وهناك جزء مقضوم منهـا ، فاتسعت بسمة الجميلة وهى تقول :

ـ احتفظ بها ، وامش فى هذا الاتجاه ، فهنـاك يتحقق مصيرك ..

نظر إلى حيث امتدت ذراعها بالإشارة ، وغمغم متسائلا :

ـ أهذا طريق العودة إلى أرض الأقزام ؟!

ـ بل هناك يتحقق مصيرك ، وتبدأ رحلتك ..

مكث ينظر قليلاً ، قبل أن يحسم أمره ويبدأ رحلة المسير من جديد ، دون أن يروى ظمأه بقطرة واحدة من الماء المسموم ..

سار فى الاتجاه الذى أشارت إليه ، بينما وقفت هى تنظره ، وهو ينحنى بقامته الضئيلة ليحمل فرعًا جافًا من الشجر ، ثم يستكمل المسير منتصبًا ..

سار وسار وسار ، دون أن يرى سوى الهجير والرمال ..

والهجير والرمال ..

سار طويلاً حتى بدأت العاصفة الرملية فى الهبوب ، وبدأ الحلم فى التحقق ..

(.. يقطع الصحراء ممسكًا بفرع شجرة جاف ، شفتاه مشققتان ، عيناه محمرتان ، العاصفة الرملية تكاد تقتلعه من قدميه المنغرستين فى الرمال ، إنه يحاول مواصلة المشى فى سبيل الوصول إلى هدف لا يعرفه ، غير أنه سقط فى النهاية ..)

سقط فى النهاية بوجهه منكبًا على الأرض المشتعلة بالحرارة ، وآخر ما يسمعه فى رأسه عواء الجوارح فى السماء ، و أخذت الريح تعوى إذ يشتد هبوب العاصفة ..

كان آخر ما رآه قبل أن يغمض عينيه مستسلمًا صوتها ، حبيبته التى بكت لفراقه ومدت يديها دون أن يمد يديه ..

ليته فعل ..

ليته فعل !

* * *

(٦)

أفاق (سنوب) ـ ولم يكن قد حصل على اسمه بعد ـ والماء يقطر فى فمه ، ليجد نفسه مستلقيًا على سرير وثير ؛ وبجواره امرأة طيبة الوجه والعينين تصب الماء قطرة قطرة فى فمه الجاف ..

أفاق متسائلاً :

ـ أين أنا ؟!

وهتفت المرأة الطيبة منادية :

ـ لقد أفاق يا (واز) ..

دخل زوجها الذى لا تحمل ملامحه أو عيناه قدرًا أدنى منها طيبة ، وقال فى انشراح :

ـ من يراك مستلقيًا فى الصحراء بعد العاصفة يظن أنك لن تعيش أبدًا أيها القزم ..

أعاد القزم سؤاله :

ـ أين أنا ؟!

أشار (واز) إلى نفسه :

ـ أنا (واز) ، كاتب حسابات مدينة الموتى ..

ثم إلى زوجته :

ـ .. وهذه زوجتى (شبست) ..

ثم إنه أشار إلى خارج الغرفة الضيقة :

ـ .. وفى الخارج ابنى وابنتى يلعبان بين المقابر حيث يخاف الجميع من الاقتراب ..

نظر (سنوب) إلى الرجل وزوجته ، على ضوء مشعل معلق فى الجدار ، وأيقن لحظتها أن رحلته قد بدأت ، ومصيره أيضًا ..

لقد عثر عليه (واز) بالمصادفة ـ هكذا أخبره فيما بعد ـ عندما خرج للصحراء يتأمل ، إذ إنه يحب التأمل من وقت لآخر ، بالذات بعد أن تعم السكينة عند نهاية العاصفة ، فوجده راقدًا على وجهه بين الحياة والموت ، ظنه طفلاً ضالاً فى البداية قبل أن يفاجأ بكونه قزمًا ، فعاد به إلى المنزل ، وهكذا بدأت الرحلة وبدأ المصير ..

قدموا له الطعام الشهى ، والشراب اللذيذ ، والأوقات العائلية المرحة ، واقترب منه الطفلان يشاركانه ألعابهما ، وقد راق لهما حجمه الذى يقارب حجميهما ، وكان الأب

يخرج للعمل فى الصباح فى ديوان مدينة الموتى الغربية ، حيث يتلقون طلبات بناء المقابر وشرائها ، ويحسبون الخسائر التى يكبدها إياهم اللصوص ، ويعدون سجلات رواتب العمال والفنانين فى حفر وتزيين القبور ، أما الزوجة فتبقى فى المنزل تطبخ وتكنس وتضرب الأولاد عندما يخطئون ..

حتى داهم الحلم (سنوب) ، فقال لـ (واز) على مائدة الطعام :

ـ ستكون هنا جنازة عظيمة قريبًا ..

هز الرجل كتفيه وقال :

ـ الجنازات لا تنقطع عن مدينة الموتى ، إنها منشأة لهذا الغرض ..

نظر (سنوب) إلى الطفل الصغير بطرف عينه :

ـ إنها جنازة سينفطر لها قلبك ألمًا ..

قال (واز) فى سخرية :

ـ لست من أصحاب المقام الرفيع حتى أقيم لنفسى أو لأقربائى جنازات عظيمة ..

واتقلب الأمر إلى مزحة ، غير أنها أثبتت جديتها بعد عدة أيام فقط ..

فقد لقى ابن حاكم مدينة الموتى نحبه غرقًا فى النهر مع صديق له حيث كانا يلعبان ، هذا الصديق كان ابن (واز) ، وهكذا خرجت جنازة عظيمة للطفلين ، جنازة كاد قلب (واز) أن ينفطر لها ألمًا ..

ثم راحت السكرة وجاءت الفكرة ..

ـ كيف عرف بما سيجرى قبل أن يجرى ؟!

سألت المرأة الطيبة الملامح والعينين (شبست) زوجها ، فأجابها وهو ينظر إلى ابنته الصغيرة التى أصابها الهم من موت أخيها :

ـ يقول إن الرؤية أتته فى حلم ..

قالت (شبست) فى وجل :

ـ ألا يحتمل أن تكون روحًا شريرة هى التى ..

ولم تكمل ، لكن زوجها فهمها ، وسألها :

ـ ماذا تقترحين ؟!

قالت حاسمة ترددها :

ـ أن تذهب به إلى كاهن المعبد ، إننى خائفة على ابنتى ..

ـ وأنا أيضًا ..

قرأت فى عينيه أنه سيفعل فاطمأن قلبها قليلاً ، ومن وراء الجدار كان القزم الشجاع يستمع إلى كل حرف يقال وهو نائم ..

كان يرى ويسمع ..

ويحلم ..

* * *

(٧)

نظر كاهن الموت الأسود إلى القزم ، وسأله :

ـ أنت إذن من يعرف ما سيحدث رغم قصر قامتك ..

قال القزم وهو ينظر إلى كاهن الموت الأسود بنظرات غير مرتاحة :

ـ إننى أحلم فقط ..

سأله الكاهن فى دهاء :

ـ وأنت نائم ؟!

أجاب وهو يقاوم إحساسه الفظيع :

ـ ليس دائمًا ..

مال الكاهن نحوه قائلاً من خلف بسمة صفراء :

ـ هل يعنى هذا أنه ربما كنت تحلم الآن ؟!

أجاب القزم وهو ينتفض :

ـ أنا بالفعل أحلم الآن ، وأرى ..

اتسعت البسمة الصفراء وفاحت منها رائحة كريهة :

ـ ترى ؟! ماذا ترى ؟!

أغمض القزم عينيه قائلاً وقد رشح وجهه بعرق غزير :

ـ أرى ثعبانًا مخيفًا يستعد لالتهامى ..

ضحك الكاهن الأسود ، وعاد بظهره إلى الخلف هاتفًا :

ـ أحلامك حقيقية أيها القزم ، ستكون ذا فائدة عظمى بالنسبة لى ..

وفكر باستمتاع :

ـ .. يجب أن نبحث لك عن اسم أناديك به ، ما رأيك فى اسم (سنوب) ؟! أعتقد أنه يناسبك ويليق بك تمامًا ..

أراد (سنوب) وقد أصبح اسمه كذلك أخيرًا أن يسأله عن معنى وجود اسم ينادى به أى كائن ، لكنه أحجم ، فيما جلجلت ضحكات الكاهن الأسود ، فى ليل مدينة الموتى الأسود ..

* * *

(٨)

بدأ كاهن الموت لعبته مبكرًا ، وازدهرت تجارته بأحلام (سنوب) أيما ازدهار ..

جاءه أحد النبلاء والشك يلهب قلبه الملكوم ، فزوجته الحسناء التى أخذها جارية من إحدى القرى الفينيقية لم تعد تحبه ، ولم تعد تتبسم فى وجهه أو تتعطر من أجله ، بل إن خيانتها له باتت موضع تساؤل ، والأدهى أنه يشك فى أنها تخونه مع أحد موظفيه ..

كان الشك يحيل ليله جمرًا متقدًا ، ويجعل من نهاره مأساة لا تريد أن تنتهى ، حاول كشف المستور مرارًا دون جدوى ، كانت الشواهد كلها تنطق ببراءتها وبراءة موظفه ، لكن الشك بذرة خبيثة إذا اندست فى تربة القلب ظلت هناك لتثمر زقومًا ، وكان مستعدًا لدفع الكثير ، الكثير جدًا ، فقط من أجل أن يهدأ ويعرف الحقيقة ..

قدمه الكاهن الأسود إلى (سنوب) ، وفور أن وقعت عينا (سنوب) على النبيل المهموم قال :

ـ أنت تتعذب ..

صاح النبيل فى عصبية :

ـ كل خلجة من وجهى تنطق بعذابى ، أنت لم تأت بشىء جديد ..

قال (سنوب) فى هدوئه الذى لم يبارحه مذ ضمه الكاهن الأسود إلى كهنة معبده :

ـ إنه الحب عندما يمتزج بأقسى صور العذاب ، الغيرة ..

صاح فيه النبيل :

ـ قل الخيانة ..

قال (سنوب) :

ـ سمها ما شئت ، بيد أنى أنصحك بمحاولة النسيان ..

كادت عروق النبيل تنفجر من عنقه وهو يصرخ :

ـ أنساها ؟! كيف أنساها وقد ملكت على كل كيانى ؟! كيف أتركها لموظف حقير من موظفى قصرى ؟!

قال (سنوب) مغمضًا عينيه :

ـ اتركها لمن تحب ، إنها لم تحبك أبدًا منذ أسرتها وجعلتها تترك قريتها قسرًا ..

هتف النبيل به مشدوهًا :

ـ كيف عرفت كل هذا ؟!

قال (سنوب) فاتحًا عينيه :

ـ أحلامى أنبأتنى ، ما من جريرة ارتكبتها المرأة إلا أنها أحبت ..

نهض النبيل وقد احمر وجهه ، وركل المقعد الخشبى بقدمه صائحًا :

ـ لتهلك بحبها إذن .. وليهلك هو أيضًا ..

وخرج ، تشيعه عينا (سنوب) الداميتان ..

بعد أيام لاكت ألسنة العامة النبأ المثير ، نبأ مقتل النبيل الفرعونى فى أحد منازل (طيبة) المطلة على النهر ، حيث وجدوا جثته فى غرفته وقد تعفنت فى دمها المهدر ..

يقال إنه داهم جاريته وموظفه فى هذا المنزل ، وكاد أن يفتك بهما ، لكنهما كانا أسرع منه ، كما أنهما لم يشربا الكثير من الجعة مثله ، فأجهزا عليه قبل أن يفرا تاركين المدينة بأسرها إلى حيث لا يعلم أحد ..

تناقلت الهمسات أيضًا نبأ القزم الذى أفضى بمكنون السر إلى النبيل ، وكيف أنه يقبع فى حماية كاهن الموت الأسود فى الضفة الغربية ..

بلغت الأنباء (سنوب) فى معزله ، لكنها لم تسعده ..

بلغت الأنباء (سنوب) ، وكان يبكى متذكرًا حبيبته التى تركها وحيدة ، فى أرض الأقزام ..

* * *

(٩)

أشار الكاهن الأسود إلى الرجل الأنيق فى زيه الفرعونى الموشى بالحلى والألوان ، قائلاً وهو يخاطب قزمه الأثير (سنوب) :

ـ السيد ... لا داعى لذكر أسماء .. إنه أحد أكبر موظفى الديوان الملكى بالعاصمة الشمالية (منف) ، وقد جاء لمقابلتك خصيصًا يا عزيزى ..

نظر (سنوب) إلى الرجل البدين ، المنتفخ الأوداج ، وبدأ يرتجف ..

قال الرجل :

ـ أريد منك معرفة أسرار رجل معين ، وسأدفع الكثير ..

ابتسم الكاهن الأسود فاركًا كفيه وهو يتخيل الذهب المنهمر على جيوبه الواسعة ، بينما قطب (سنوب) قائلاً :

ـ غريمك فى العمل ، أليس كذلك ؟!

هز الرجل رأسه فى إيجاب قائلاً :

ـ بالفعل ، يبدو أن الأقاويل التى تطلق من حولك صحيحة ..

أغمض (سنوب) وقال :

ـ الرجل الشريف الذى لم يمد يده إلى سرقة ، ولم يأكل حرامًا ، ويرفض مشاركتك أنت وعصابتك فى نهب أموال الناس ؟!

مط الرجل شفتيه قائلاً فى امتعاض :

ـ قل المتظاهر بالشرف ، لا يوجد أحد نظيف إلى هذا الحد ، أريدك أن تدلنى على نقطة ضعف أستطيع النفاذ إليه منها ..

قال (سنوب) وعيناه مغمضتان :

ـ نهايتك القريبة أنت ورجالك ستكون على يديه ..

قطب الرجل هاتفًا :

ـ ماذا ؟!

قال (سنوب) :

ـ لقد أرسل ببردية إلى الوزير مباشرة يضمنها شكوى من عبثكم بالأموال والغلال ، وتلاعبكم بالبيانات الصحيحة ، والوزير ينظرها ويبت فى أمرها ، ويصدر أمرًا بسجنك مدى الحياة فى سجن الصحراء ..

نهض الرجل كأن حية لدغته :

ـ مستحيل .. لن أدعه يفلت بها ..

قال (سنوب) :

ـ سيفلت بها ، والأكثر من ذلك ، أنه سيتزوج من ابنتك ..

استطاع الكاهن الأسود بصعوبة أن يخلص (سنوب) من بين يدى الرجل البدين الذى انقض عليه هائجًا يريد خنقه ، وحمله حراس المعبد إلى الخارج وألقوه فى عربته صارخًا بالويل والثبور وعظائم الأمور ..

وبعد أيام لاكت الألسن قصة الموظف الكبير الذى أدت به شكوى موظف صغير إلى السجن فى الصحراء البعيدة ، وقصة سقوط عصابته من الموظفين الذين عاثوا فى الديوان الملكى فسادًا ، وقصة الحب السرية بين الموظف الصغير وابنة الرجل الكبير ، وكيف أنها هى من ساعده فى التخلص من والدها ؛ لأنها لم تكن تطيق فساده ..

تكلموا أيضًا عن دور القزم فى المعبد الغربى فى هذه القصة ، وعندما بلغت الأنباء (سنوب) لم يفرح ، فقد كان يبكى كعادته ..

ويتذكر ..

* * *

(١٠)

تناقلت الألسن بعدها قصة أخرى ..

وقصة أخرى ..

وقصة أخرى ..

قصة الأميرة ذات الدم الأزرق التى أحبت شابًا فقيرًا من الشعب لا حول له ولا قوة ، وعندما لجأت إلى القزم قرأ فى عينيها مأساة قادمة ، وقال :

ـ أرى فى عينيك دموع الحب والمأساة .. الحب العظيم لابد له من مأساة حتى يصير عظيمًا ، ويستمر حبًا ..

ولم يمض وقت طويل حتى مرضت الأميرة ، وماتت ، وسمعت (طيبة) كلها بكاء حبيبها وعويله عليها ، وترديده لاسمها فى الليل والنهار ..

كان (سنوب) يسمع الأقاويل والقصص ..

ويبكى ..

ويتذكر ..

وتناقلت الألسن قصصًا أخرى ..

وقصصًا أخرى ..

وقصصًا أخرى ..

قصة قائد فصيلة الجيش الذى لجأ إليه وقد استبد به الطموح إلى منصب أعلى ، وبمجرد أن رآه القزم قال له :

ـ الدم .. طموحك لن يتحقق بغير دم ..

وبعدها مباشرة سقط قائد الفصيلة مضرجًا فى دمه ، بعد معركة عنيفة فى إحدى الحملات التأديبية لقبائل الرعاة فى الشرق ..

يسمع (سنوب) ويبكى ..

والقصص تنتشر أكثر وأكثر ..

زوجة الأمير التى أنهكها طول انتظار الحمل ، فلجأت إليه ، ليبشرها بغلام لها ليس من بطنها ، واكتشفت بعدها أن لزوجها زوجة سرية أخرى ، حدثها بذلك على فراش المرض ، وكان عليها أن تربى الطفل بعد أن تركته أمه ، وتزوجت بثرى آخر ..

كاتب العدل الذى يعذبه ضميره بعد حكمه على مظلوم إثر رشوة تقاضاها ، فأنبأه القزم بأنه يلقى نفس مصير

المظلوم ، وأن المظلوم نفسه كان قد ظلم آخر بنفس الطريقة ، وهكذا تدور الدائرة الأبدية ، وبالفعل يجرد الرجل من منصبه بعد قضية استيلاء على أرض هو منها براء ، لكن أحد غرمائه كان قد دفع للقاضى الثمن مسبقًا ..

كاهن معبد (آمون) الذى لجأ إليه لكى يصل إلى قلب الكاهن الأكبر بطريقة سهلة وسريعة ، فيخبره بأنه هو الكاهن الأكبر القادم ، وتمر الأيام فيعتزل الكاهن الأكبر مخلفًا تلميذه وراءه فى مكانه ، وقد عرف كيف يتودد إليه ويكسب وده ، فأصبح الكاهن الأكبر التالى ، رغم الأقاويل التى تفترض أن التلميذ قد قتل أستاذه بسم بطىء ..

قصص وقصص ..

حكايات وحكايات ..

والقزم الشجاع الذى ترك أرض الأقزام منذ زمن بعيد يبكى فى عزلته ، يشيب شعره ، يتعلم الحكمة من عقول وقلوب وحاجات البشر ، ويحلم بالعودة المؤجلة ..

قصص وقصص ..

حكايات وحكايات ..

وكان لابد أن يصل الأمر إلى القصر الملكى ، وأن يسمع فرعون نفسه القصة تتناقلها ألسنة تلهج وعيون منبهرة ..

ـ انتونى بهذا القزم ..

أصدرها الفرعون قانونًا لا يقبل النقاش ، وسر الكاهن الأسود للخبر كل السرور ، فها هو أخيرًا قد أصبح طريقه ممهدًا نحو القصر الملكى نفسه ..

حمل الحرس القزم (سنوب) على هودج مذهب ، عبروا به النهر إلى الجهة الشرقية ، والتهبت شوارع (طيبة) بإشارات الأنامل والهمهمات حول القزم الذى تخفيه ستائر الهودج ، والذى يشق الآن طريقه إلى قلب قصر الفرعون ، الكل يحلم برؤيته ، والبعض يقسم أنه ما إن اقترب من الهودج حتى سمع صوت بكاء من خلف الستار ..

وفى الوقت الذى كان فيه الكاهن الأسود يغرق تحت أكوام من ذهب الفرعون ، التى قدمها ثمنًا لـ (سنوب) ، اختفى الهودج داخل القصر ، واختفى معه القزم ، واختفت سيرته أيضًا إلى الأبد ..

ذهب كل شىء فى غياهب النسيان ، فالألسنة تنسى بسرعة ..

آخر ما قيل أن القزم يعيش فى كنف الأسرة المالكة ، وأن الفرعون يحسن ضيافته ويعامله كسفير فوق العادة من بلاد الأقزام الأسطورية ، وأن القزم مازال يحلم ، لكن الفرعون لا يمنحه فرصة أن يرى أحدًا ، فقط يسلّى نفسه بأن يقابله بين الحين والحين ، من أجل أن يطلع على آخر أحلامه ..

ويقولون أيضًا إن الفرعون شخصيًا هو من يمسح عنه دمع البكاء وحرقة الذكرى ، بيده المقدسة ..

* * *

(١١)

كم مر من الوقت ؟!

لابد أنه وقت طويل ..

طويل جدًا هذه المرة ..

ذهب فراعين وأتى فراعين ، انتصبت عروش وانهدمت عروش ، أطفال ولدوا وشيوخ ماتوا ونساء أحببن ورجال أحرقتهم الحروب ودجنهم السلام ، والقزم (سنوب) فى جناحه الملكى الخاص ، يتذكر ويحلم ويبكى ، وينتظر يوم الرجوع إلى الأرض التى تبعد يومًا بعد يوم ..

حتى أتى اليوم المشهود ..

يوم أن سأل عن الفرعون الحالى ، فأجابوه :

ـ إنه (تحتمس الثالث) ..

فقال :

ـ خذونى إليه ..

حملوه إليه على محفة ملكية ، وفى قاعة العرش وضعوه أمامه ، ليواجه الملك الشاب الذى ارتقى العرش حديثًا ، القزم الذى طالما سمع عنه ، وأخيرًا رآه بعد أن اشتعل رأسه شيبًا ، وحفر الدهر تجاعيده على وجهه بإزميل الشيخوخة ..

تقدم (سنوب) من (تحتمس) ، وانحنى أمامه قائلاً :

ـ امنحنى الأمان يا مولاى ..

ابتسم (تحتمس) ، وقال مداعبًا :

ـ امنحنى أنت الأمان يا وديعة القصر المحفوظة من قديم الأزل ..

قال (سنوب) وهو يرفع عينيه الواسعتين إلى أعلى :

ـ لوثتنى حياة البشر ، وإن لم أعد إلى أرض الأقزام فسيأكل الموت روحى قريبًا ..

هتف (تحتمس) مندهشًا :

ـ تريد العودة بعد كل هذه السنين ..

قال (سنوب) فى تأدب :

ـ إن أذن لى مولاى ..

سأله (تحتمس) بلهجة لها ألف معنى :

ـ حتى وإن كنا فى حاجة إليك ؟!

قال (سنوب) وقد جهز إجابته سلفًا ، وتمرن عليها مئات المرات :

ـ لن تحتاجوا إلى قزم بلا روح ، أما القزم فيحتاج إلى هواء أرض الأقزام النظيف حتى يعيش أيامه الباقية فى رضا ..

نظر إليه (تحتمس) وهو يهز رأسه متفهمًا قبل أن يقول :

ـ وهل تقوى عظامك البالية على عناء الرحلة إلى هناك ؟!

قال (سنوب) وقد تمرن على هذه الإجابة أيضًا فى معزله :

ـ ما الحياة إلا رحلة منهكة يا مولاى ، المهم أن نتحلى بالشجاعة اللازمة حتى نصل إلى نهايتها منتصرين ..

ابتسم (تحتمس) ، وقال :

ـ أنت قزم شجاع يا (سنوب) ، شجاعتك فى خوض رحلتك إلى هنا منذ عشرات السنين ، وشجاعتك فى البقاء معنا ومساعدتنا رغم كل الظروف والمحن ، وشجاعتك الآن فى طلبك العودة إلى أرض الأقزام ، كل هذا يجعلنى لا أستطيع رد طلبك ..

أشرق وجه (سنوب) ، وخيل لـ (تحتمس) أنه عاد شابًا إذ هتف :

ـ حقًا ؟!

ـ نعم ، ستعود إلى أرض الأقزام تحت حراسة أفضل رجالنا ، فاهنأ بالاً أيها الشيخ القصير القامة !

هتف (سنوب) وعيناه مغرورقتان بدمع الامتنان :

ـ الشكر لك أيها الملك العظيم .. إننى أقرأ فى عينيك ـ رغم وهن بصرى من فرط البكاء ـ مستقبلك الباهر وانتصارك على أعدائك وخلودك على مدى الأعوام ، رغم ...

تعثرت الكلمات فى شفتى (سنوب) ، فشجعه (تحتمس) بابتسامة :

ـ قلها .. قلها ولا تخف ..

قال (سنوب) :

ـ رغم أن يديك ملوثتان بدم الملكة السابقة ..

قال (تحتمس) وقد اكتسبت بسمته طعم الحنظل :

ـ ربما كان هذا هو السبب يا عزيزى ..

ـ ربما ..

قالها (سنوب) ، ثم أردف شاخصًا بعينيه الضعيفتين فى المجهول :

ـ .. إن الخلود نهر من الدم والدموع ..

ـ هيا يا (سنوب) ، جهز نفسك للرحلة ، رحلة العودة ..

ـ الشكر لك ثانية أيها الملك العظيم ..

عاد (سنوب) إلى جناحه الملكى ، ولم يجد ما يأخذه معه ، وبات الليلة دون دموع ، ولأول مرة منذ زمن بعيد موغل فى القدم ينام وعلى وجهه بسمة أمل ..

وحنين إليها ..

أرض الأقزام ..

والحبيبة التى هناك ..

* * *

(١٢)

فى معبد (لوتس) قال المعلم (تحوت) :

ـ مهمتكما توصيل أمانة ملكية غالية إلى أرض بعيدة ..

سأله (حورى) :

ـ فقط ؟!

ـ فقط ..

وسأله (محب) :

ـ وهل ستكون (نفرو) معنا ؟!

ـ ألا تمل من هذا السؤال ؟!

ابتسم (محب) لرد معلمه ، الذى أردف :

ـ .. المفروض أن تكون قد حفظت الإجابة عن ظهر قلب ..

قال (حورى) واجمًا :

ـ نعم ، دائمًا نحن معًا ..

قال (تحوت) :

ـ هيا ، اغربا عن وجهى واذهبا إلى هناك على الفور ..

* * *

(١٣)

بمجرد أن رسا القارب عند ضفة (طيبة) الغربية ، قفز (سنوب) من داخله وهرول فوق الطمى متجهًا إلى الغرب ، وهاتفًا فى وجد :

ـ هيا ، فالشوق إلى أرض الأقزام يكاد يقتلنى ..

هبط (حورى) ، ثم (محب) الذى مد يده لتنزل (نفرو) من القارب وهو يهتف به :

ـ هل أنت واثق من وجود مكان كهذا ، سيد (سنوب) ؟!

أجابه (سنوب) وهو يتقدم إلى الغرب دون النظر نحوه :

ـ موجود ، لكنه ليس مكانًا يصل إليه الجميع ..

قالت (نفرو) وهو ترفع طرف ثوبها حتى لا يبتل بالماء الذى يلامس الضفة :

ـ يقولون إنه مجرد أسطورة ..

قال وهو يغذ السير :

ـ لكل أسطورة نصيبها من الحقيقة ، ولأرض الأقزام أيضًا نصيبها من الحقيقة ..

أسرعوا يلحقون به ، ويسيرون خلفه ، مما جعل المشهد مضحكًا لقزم يقود ثلاثة من طوال القامة ، وبدا الأمر مضحكًا أكثر عندما هتف فيه (حورى) باتزعاج :

ـ لا أرى سبب إصرارك على السير ، فى حين أنه كان من الممكن أن نأخذ عددًا من الدواب بحيث نوفر وقتًا ومجهودًا ..

قال (سنوب) دون أن يتوقف للحظة :

ـ أرض الأقزام لا يمكن الوصول إليها إلا سيرًا ، فى أرض الأقزام كنا نمشى باستمرار حتى نحفظ للحيوانات كرامتها ، وحتى لا تضمر أقدامنا من قلة الاستعمال !

تبادل (حورى) و(محب) نظرة دهشة من منطق القزم العجيب ، قبل أن يوجه إليه هذا الأخير سؤاله باسمًا :

ـ وما الذى جعلك تتركها يا عزيزى وتأتى إلى هنا ؟!

أجابه فى سرعة كأنه قد تمرن على هذه الإجابة أيضًا :

ـ نفس السبب الذى يدفعنى إليها الآن ، الحنين !

سألته (نفرو) :

ـ لكن حنين تركها ليس كحنين العودة إليها ، أليس هذا صحيحًا ؟!

ـ بلى أيتها الجميلـة ، الحنين الأول للمعرفـة ، والحنين الثانى للوطن ..

وتوقف بغتة ، غارسًا فرع شجرة جاف ـ لم ينتبه أى منهم لوجوده معه من قبل ـ فى الأرض ، وقائلاً :

ـ .. هنا نستريح !

التهمت الدهشة ملامح فريق (لوتس) ، وهم يحدقون فى المكان الذى يقفون فيه ، أمام معبد مدينة الموتى مباشرة ، وهتف (حورى) عابسًا كأنه يحادث طفلاً :

ـ وهل مشينا لكى نستريح ؟!

جلس (سنوب) بجوار الفرع الجاف على رمال الأرض ، وقال :

ـ هنا المحطة الأولى ، اجلسوا حولى وتعالوا نأكل شيئًا ..

مد (سنوب) يده إلى الخرج الذى فى حوزته ، فجلس (محب) إلى جواره على الفور ، قائلاً وقد راقته تصرفاته غير المفهومة :

ـ لا أدرى لماذا أشعر أنك تعرف ما تفعل ، رغم عدم فهمى لأى مما تفعله !

نظر (سنوب) فى عينيه الخضراوين ولحيته الخفيفة ، قائلاً :

ـ لأنك فنان ، ويمكنك أن تشعر بالآخرين ..

ضحك (محب) وقال ، مرسلاً بنظرة خفية إلى (نفرو) ، التى ترسل بدورها نظرات خفية إلى (حورى) ، الواقف عاقدًا ساعديه فى ضجر :

ـ لا أدرى حقًا إن كنت فنانًا ، وبالنسبة لإحساسى بالآخرين فهو حقيقى ، المشكلة أن الآخرين هم الذين لا يحسون بى ..

مد (سنوب) يده إليه بتفاحة قائلاً :

ـ هذا قدر الفنان ، وقدر العاشق ..

رفع (محب) حاجبيه ، وقال دون أن يخفى انبهاره :

ـ يبدو أنك تعرف ما تقوله أيضًا ..

قال (سنوب) ويده لا تزال ممدودة بالتفاحة :

ـ لقد تعلمت دروسى من الحياة جيدًا ، وسأعطيك درسًا مهمًا لتذكرنى به دائمًا ..

تناول (محب) التفاحة وهو يهتف فى شغف :

ـ رائع ، هكذا يحلو الكلام ..

هتف (سنوب) بـ (حورى) و(نفرو) :

ـ وأنتما ايضًا استمعا جيدًا ، فالدرس مشاع للجميع ..

* * *

الدرس الأول

كن جشعًا

(١)

قال القزم (سنوب) :

ـ الجشع نهم لا يرتوى ، ورغبة حارقة فى الامتلاك دون شبع .. فى أرض الأقزام نحن جشعون ، جشعون للحب وللحرية وللغناء وللأمل ، جشعون إلى حد أننا لا نشبع من البحث عن أسباب للسعادة ، ومن التماس طريق للنوم مرتاحى البال .. كن جشعًا فى رفض الجشع ، ولا تكتف من لعن الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، أعمدة الشهوة والفساد وأسباب التناحر بين كل الأمم ، فمن أجلهما تسيل دماء كثيرة ، وتزهق أرواح ، وتنهار دول ..

* * *

دعنى أضرب لك مثلاً ..

إنها قصة حدثت منذ زمن بعيد ..

كان (شى) رجلاً ذا لحية خفيفة عندما غواه الفن ، فاستسلم له برغم ضعف موهبته ، لكنه اجتهد ، وفضيلة الاجتهاد تمحو الكثير من عيوب الموهبة المحدودة ..

رحل (شى) إلى الغرب حيث تقوم مدينة الموتى ، وحيث يذهب الجسد فى رحلة قصيرة قبل البعث والحساب ،

فعلى جدران المقابر وسقوفها تحيا الصور الملونة ، والموتى يحرصون على وجود التماثيل والقطع الفنية التى تصحبهم فى رحلتهم القصيرة ، وهكذا كان المناخ مناسبًا لمن يبحث عن عمل يفرغ فيه طاقته الفنية ، ويحقق أحلامه فى الخلود ..

أصبح (شى) واحدًا من عشرات الفنانين العاملين فى مقابر النبلاء ، يمسك ريشة ويرسم ، يدق بالإزميل ويحفر ، يقضى أوقاته بين العمال ، يشاطرهم الطعام والشراب والطموحات ، وينام الليل فى مساكن مدينة الموتى البالية ، المبنية من الطمى اللين ..

مرت الأيام على (شى) وهو لا يرى إلا عمله ، ولا يفكر إلا فى تصاويره وتماثيله ، يكلفه الفنان الأكبر بتنفيذ عمل ، ويقترح هو أعمالا أخرى ، ولم يكن هناك ما يعكر صفو الحياة ، حتى إن (شى) تمنى أن يداهمه الموت وهو يرسم ، فلم يكن فى حياته ـ وهو لا يزال حتى هذه النقطة من القصة فى ريعان الشباب ـ إلا الفن ..

لكن القدر كانت له خطط أخرى ..

بدأ (شى) ينتبه لأحد زملائه من الوافدين حديثًا إلى زمرة

فناتى القبور ، شاب لين حليق الرأس أخضر العينين ، قيل إنه مطرود من المعبد بعد أن فشل فى تلقى علم اللاهوت والكهانة ، وقد كان فى هذا الشاب الغامض ما يغرى فعلاً بالمتابعة ، دعك من فنه فلم يكن استثنائيًا إلى هذه الدرجة ، لكن .. ضربة يده الممسكة بالريشة ، حساسية أنامله وهى تحفر الخشب والجرانيت ، نظرات عيونه الهائمة وهو يتأمل فى عمله وأعمال غيره ، رقته المبالغ فيها ، ولهجته الناعمة فى الحديث ، كل هذا جعل (شى) واثقًا من أن سرًا غامضًا يكمن وراء هذا الشاب ..

سر عليه أن يكتشفه بنفسه ..

وبالمراقبة المستمرة ، اكتشف (شى) الحقيقة ، فالشاب الجديد لم يكن شابًا ..

لقد كان شابة !

إنها فتاة من (طيبة) عشقت الفن مثله ، لكن القوانين الصارمة التى تقضى بعدم عمل النساء فى الفن ، وبالذات فى تزيين القبور والرسم على جدرانها ونحت تماثيلها حالت دون عملها فيما تحب ، فالكهنة الكبار يعتقدون أن المرأة تدنس القبر الذى تلجه قبل الميت ، فقررت أن تتمرد وأن

تتنكر فى هيئة ملابس رجل ، وأن تحلق شعرها الطويل ، وأن تنسج حول نفسها قصة الطرد من المعبد ، حتى تحقق حلمها ..

همست له بقصتها بعد أن صارحها بكشفه لأمرها أمام النهر المتدفق ، وفاضت عيناها الخضراوان بالدمع الهتون وهى ترجوه ألا يفضح سرها ، فهى لا تستطيع العيش دون أن تعمل فى هذه المهنة بالذات ، ناهيك عن العقاب الرهيب الذى سوف يحل بها عند اكتشاف خدعتها ..

ابتسم (شى) ، فلم تكن هذه نيته على الإطلاق ..

قال لها وهو يحتضن كفيها فى كفيه :

- تزوجينى وسيبقى الأمر سرًا بيننا ..

ضحكت ودموعها تخنقها ، وارتمت فى أحضانه والغروب يحتضن مشاعرهما الجميلة من وراء ظهريهما ..

تزوجا ، وظل الأمر سرًا ، كانا يتبادلان الغمزات أثناء العمل ، ويتقاسمان الطعام وحدهما بعيدًا عن الآخرين ، ويشتركان معًا فى الأعمال الفنية ، مما جعل النظرات تلاحقهما ، والهمسات عن العلاقة الغريبة التى بينهما تنتشر بين العاملين ، لكنها ظلت مجرد همسات لم يعرها الكثيرون التفاتًا ..

حتى عندما انفردا بمنزل من منازل الطمى وحدهما ، هز الجميع القحوف وقالوا إن الحياة زاخرة بالأعاجيب ، وغدًا نرى ما هو أعجب ..

مضت حياتهما من هناءة إلى هناءة ، وحفلت الأوقات بسعادة صافية ، غير أن القدر ظل مخبئًا خططه السرية عن العيون ، لا يكشف عنها إلا فى لحظة تحققها ..

كانت مقبرة أحد النبلاء هى العمل القادم ، وأراد النبيل أن ينحتوا له تمثالاً عملاقًا له ..

استمر العمل فى التمثال لأسابيع طويلة ، وفى اليوم الذى أوشك فيه على الاكتمال كان (شى) يضع اللمسات الأخيرة على العين ، فوق الأخشاب المربوطة بالحبال ، بينما زوجته وحبيبته تضع لمساتها على أظافر القدمين ، عندما حدث ما حدث دون سابق إنذار ..

لقد انفكت الحبال تحت وطأة الوزن الثقيل ، وسقطت الأخشاب من أعلى ، وفوقها (شى) الذى صرخ فى هلع ، وإزميله يصنع فوق عين التمثال خدشًا غائرًا ، قبل أن يسقط معه على الأرض مرتطمًا بها فى قوة ..

حدث كل شىء أمام عينيها الذاهلتين ، وعلى مسافة أذرع قليلة منها ، وسمعت بأذنيها صوت عظام تتحطم ..

عندما أدركت ما يحدث ، ورأت (شى) ينزف على الأرض ، صرخت فى هلع ، وأسرعت نحوه تحمله بين ذراعيها ..

كان رأسه سليمًا ، وعيناه مغمضتان وهو يعض على أسنانه من الألم ، وفى لحظة تجمع الكل من حوله لهث قائلاً :

ـ تمنيت طويلاً أن تأتى نهاية حياتى ، وأنا أعمل ما أحب ..

وأغمض عينيه فيما أطلقت زوجته صرخة أخرى ، ودموعها تبلل وجهه وملابسه المبقعة بالدماء ..

* * *

(٢)

لم يمت (شى) لحسن الحظ ، أو لسوئه ..

لقد حملوه إلى أحد الكهنة الخبراء بسرعة ، وقد استطاع أن يحافظ على حياته وأن يعيده من غيبوبته ، لكن .. عندما أفاق (شى) ، اتسعت عيناه فى رعب ، وهو يحدق فى ذراعه اليمنى التى لم يعد لها وجود ، فقد اضطروا لبترها حتى يعيش ..

تمنى (شى) الموت ألف مرة ، بدلا من حياة يعجز فيها عن ممارسة فنه ..

حمله زملاؤه إلى منزل الطمى ، وجلست زوجته بجواره وسعادتها تخالط حزنها ، فهو قد عاش ليسمع منها النبأ :

ـ فى رحمى جنين ..

لكن الفرح لم يعرف طريقه إلى وجهه ، وقد عذبها شروده ، وآلمها غيابه عنها وعن أبوته الغائبة ، غير أنها نهضت قائلة فى حزم :

ـ .. سأعود إلى العمل ، فلم يبق لنا الآن سواه ..

أخذ (شى) فى الأيام التالية ، وفى الأسابيع التالية ، وفى الشهور التالية ، يحاول الرسم بيده اليسرى ، أو النحت بها ، أو حتى الكتابة ، لكن النتيجة المزرية كانت تزيد من معاناته وشعوره بالعجز ، ومن عصبيته فى معاملة زوجته

التى تعود منهكة من العمل ، وقد بدأ بطنها يتكور أمامها ..

ويوم عاد أخوها من عاصمة الشمال إليها ، هاربًا بملابس ممزقة ، وحلقٍ جاف ، منتحيًا بها مكانًا من المقبرة التى تعمل بها ، وهاتفًا :

ـ أنقذينى ، إنهم خلفى ..

سألته :

ـ من ؟!

قال :

ـ رجال الوزير ، إنهم يتهموننى بالسرقة من أموال الدولة ..

سألته :

ـ وهل سرقت حقًا ؟!

قال :

ـ أهذا ما تعرفينه عن أخيك ؟!

قالت :

ـ المشكلة أنى أعرف ..

ثم عادت تسأل :

ـ .. وكيف عرفت مكانى هاهنا ؟!

قال :

ـ أنا الوحيد الذى أخبرته بما تنوين عليه قبل هروبك ، أم تراك نسيت ؟!

نظرت إليه فى حب وضمته إلى صدرها ، وهى تقول :

ـ تعال واختبأ فى منزلى ، وسأعرفك على زوجى ..

قال وهو يعانقها :

ـ ظننت أن وزنك قد زاد ، إنك حامل إذن !

استقبله (شى) بفتور ، وقالت المرأة لنفسها إن الزمن كفيل بتقريب الرجلين العاطلين عن العمل ، لكن (شى) كان مشغولاً بمحاولاته المستمرة على تحسين أداء يده اليسرى ، أما أخوها فقد كان يفكر فى طريقة أخرى يحصل بها على ثروة سريعة ..

لم تقرب الأيام بين الرجلين العاطلين عن العمل ، وإنما تباعدت المسافة ، بينما بطن الزوجة يكبر ، ويكبر ، وهى تنهك نفسها بين المقابر ، والمنزل ، وزوجها ، وأخيها ..

كان (شى) يزدرى الأخ المنعّم صاحب البشرة الطرية ، الذى تعامله أخته كطفل صغير ، وتضع له الطعام فى فمه بيدها ، وتعطيه النقود ليذهب سرًا إلى الضفة الشرقية ، ويعود مخمورًا ، أو غارقًا فى العطور النسائية ، ويرى مع كل لحظة

تمر نظرة الجشع فى عينيه ، تكبر كأنها وحش خرافى مستعد لالتهام أى شىء فى سبيل إسكات جوعه المستمر ..

وكان الأخ لا يهتم بأحد غير نفسه ، ولا يفكر سوى فى متعه الشخصية ، وكيفية تكوين ثروة بأقل مجهود ، الثروة التى تكفل حياة كريمة حافلة بملذات لا تنتهى ..

مضت الشهور ، قبل أن ينفذ القدر خطته الجديدة ..

حدث ما كان منتظرًا ، فقد سقطت الزوجة فى منتصف المقبرة وقد هاجمتها آلام الولادة ، فحملها الزملاء إلى الكاهن الذى اكتشف أنها امرأة ، وبعد أن وضعت الجنين اكتفى بطردها من العمل شر طردة ، وبتحطيم وتشويه كل التماثيل والصور التى قامت بها فى المقابر وإعادتها من جديد ، وإخراجها مع زوجها وأخيها من مساكن عمال مدينة الموتى ..

* * *

(٣)

انقطع مصدر الرزق الوحيد ، وهدد الجوع أسرة (شى) بعد أن زادت فردًا جديدًا لا يهدأ صراخه فى طلب الحليب ..

على ضفة النهر الغربية كانوا فى انتظار قارب يحملهم إلى الضفة المقابلة مجانًا ، وكان الطفل يصرخ ، والزوجة تهزه فى رفق ، وأخوها يرغى ويزبد فى صوت خفيض ، لاعنًا حظه السيئ الذى يلقيه من مصير أسود إلى مصير أكثر سوادًا ، عندما صاح (شى) فجأة فى نبرة رهيبة ، وهو يفرد ذراعه اليسرى أمامه :

ـ إذا كنت عاجزًا عن الرسم بك مرة أخرى ، فلا أقل من أن أهبك للانتقام ..

وفى منزل الأبوين الهرمين ، منزل والدى (شى) اللذين أفرحتهما عودة الابن الضال حتى وإن كان بذراع واحدة ، ليهنآ بقضاء أيامهما الأخيرة بجواره ؛ بعد أن تفرقت السبل بأشقائه كل فى طريق ..

فى ذلك المنزل بدأ التخطيط لسرقة المقبرة الأولى ..

إن (شى) وزوجته كانا على علم بأماكن المقابر حتى ما خفى منها ، وكانا على دراية تامة بكل محتويات القبور من ثمين ونفيس ، نظرًا لطبيعة عملهما السابق الذى استمر لسنوات ، وبمعاونة الشقيق التائق للثروة إلى حد الجنون كانوا يعبرون عندما يخيم الليل إلى الضفة الغربية ، وينبشون القبور

ليلخنوا منها ما خف حمله وغلا ثمنه ، ثم يعودون قبل الفجر إلى منزل الأبوين النائمين ، وقد تركوا الطفل الرضيع فى كنفهما ..

كانت مهمة السرقة الأولى هى الأصعب بطبيعة الحال ، ومع اكتساب الخبرة أصبحت العمليات أسهل وأمتع ، وتكدس الذهب فى حجرة التخزين ، بينما دقت أجراس الخطر فى مدينة الموتى بقوة ، فالقبور المنيعة التى كانت تسرق من آن لآن على فترات متباعدة ، أصبحت الآن مشاعًا للناهبين الذين يبدو وكأنهم قد أصبحوا عصابة منظمة ..

لقد أصبحوا بالفعل عصابة منظمة ، انضم لها كثيرون ممن احترفوا سرقة القبور ، وأصبحت العمليات أسرع وأعقد وأكثر تأثيرًا ، وبدأت اختفاءات محتويات القبور تتصاعد فى ازدياد ، حتى التماثيل ذات الأحجام الضخمة والأقنعة الذهبية الثقيلة أصبحت تؤخذ ، والأدهى أنهم لا يتركون خلفهم أثرًا ، ويخططون لعملياتهم بمهارة ولا يتركون شيئًا للعشوائية ، مما وضع كاهن مدينة الموتى الأكبر فى مأزق حرج أمام حاكم المدينة ، الذى هدده بفقد منصبه لو لم تتوقف عمليات النهب المنظمة هذه ..

غادر الكاهن الأكبر قصر حاكم المدينة وهو يرتعد من فكرة عزله ، عالمًا فى قرارة نفسه أن حاكم المدينة هو الآخر يرتعد من نفس الفكرة ، فإن هو إلا وقت يمر وتبلغ الأقاويل القصر الملكى ، فيصدر مرسوم يجعلهما يتركان الكراسى لمن

يستحقها ، ولمن يستطيع الحفاظ على جلال الموت الذى يعبث به هؤلاء اللصوص ..

فكر الكاهن الأكبر طويلاً ، واهتدى أخيرًا إلى حل ..

سيشيع رجال لـه بين العامة فى بر (طيبة) الشرقى والغربى على حد سواء نبأ المكافأة الضخمة التى سيرصدها من ماله الخاص لمن يرشد عن لصوص المقابر ، كما سيتم إسباغ الكثير من الألقاب الشرفية عليه ، وسيحظى بمباركة خاصة من كاهن الموت نفسه ..

سيلعب الكاهن على أكثر الأوتار حساسية فى كل النفوس ..

النفوس البشرية الضعيفة أمام الذهب المتلألئ والأحجار النفيسة ..

وعلى الجانب الآخر ، فى منزل الأبوين الهرمين فى الضفة الشرقية ، كان الشجار محتدمًا ..

كان شقيق زوجة (شى) يطالب بحقه فى الذهب المتراكم من عمليات السرقة ، لكن (شى) لم يرد تقسيم الغنيمة على اعتبار أنها ملك خالص لمن سرقوها ، وأزمع توزيعها بالتساوى على الفقراء والمحتاجين من أبناء البلاد ، الذين ينهب الأثرياء أقواتهم ولا يمنحونهم إلا الفتات ، بينما ثرواتهم تتزايد ويكدسونها ذهبًا فى المقابر ..

صاح الأخ الحالم بالثروة وسخر منه ، فرد له (شى) الصاع اثنين ، وصفعه بيده اليسرى ، ونعته بأقذع الألفاظ أمام شقيقته التى كان طفلها يصرخ ، وهى عاجزة عن إسكاته أو فض النزاع بين شقيقها وزوجها ..

خرج الأخ متوعدًا ، وظل (شى) ممسكًا بالريشة فوق البردية يحصر الغنائم ، ويرى كيفية توزيعها ، وزوجته تراقبه من بعيد ، وتتساءل إن كان حقًا يدرك ما يفعله ..

هام الأخ فى شوارع (طيبة).، وسكر فى الحانات ، عندما سمع الأنباء التى تترامى عن مكافأة الكاهن الأكبر التى رصدها لمن يرشد عن لصوص المقابر ، ودارت الخمر برأسه مع الأفكار ، فهو يستطيع أخيرًا أن يحصل على الذهب ، وفى نفس الوقت ربما ساعده الإرشاد عن السارقين على تبرأة ساحته من التهم الملتصقة به فى عاصمة الشمال ..

احمرت عيناه ، وانتفخ وجهه وهو يفكر ..

ويقرر ..

وغادر الحانة وقد عقد العزم أخيرًا على التنفيذ ..

* * *

(٤)

لم تحظ عملية سرقة المقابر الأخيرة بنفس نجاح سابقاتها ، فقد داهم حرس مدينة الموتى اليقظ اللصوص وهم داخل المقبرة ، ودار صراع عنيف انتهى بفرار البعض ، وأسر البعض ، وقتل البعض ، وكان (شى) ممن نجحوا فى الفرار ، بينما كان أحد الحرس القتلى يمت لحاكم المدينة نفسه بصلة قرابة ..

عاد (شى) إلى الدار ثائرًا ، وأيقظ صياحه أهل المنزل ، بما فيهم الطفل الصغير ـ الذى نطق بكلماته الأولى منذ أيام فقط ـ معلنًا أن هناك من وشى بهم بالتأكيد ، وأن كل الشبهات تتجه إلى شقيق زوجته المتغيب عن المنزل منذ أيام ، فهو الوحيد الذى يعرف بأمر جميع عملياتهم القادمة ، ورغم استماتة الزوجة فى الدفاع عن أخيها الذى تحبه كابن لها ، إلا أن حجج (شى) كانت قوية بالفعل ..

قرر (شى) أن يغادر الدار فى الهزيع الأخير من الليل لكى يغثر على الفتى المترنح بالتأكيد فى إحدى الحانات ، ويلقنه درسًا فى فن الوشاية ، وحاولت زوجته التعلق بقدميه لتمنعه من المغادرة عبثًا ، فقد كانت تخشى أن يوقع الضرر بشقيقها وهو على هذه الحال من الثورة ، لكن (شى) دفعها عن طريقه بقسوة ، وترك المنزل والشياطين ترقص على محياه ..

وفى البر الغربى كانت الثورة تفور فى نفس حاكم المدينة ، وهو يواجه الكاهن الأكبر بخبر مصرع قريبه ، ويهدده إن هو لم يأت بزعيم العصابة مع شروق الشمس ، فلن يكتفى بعزله من منصبه ، وإنما ينتزع قلبه من صدره بيديه العاريتين ..

عاد الكاهن الأكبر إلى معبده متعثرًا فى خطواته ، وجاهد للتماسك أمام الفتى الذى أسر إليه فى الصباح بأسرار عملية السرقة الليلة ، ومال نحوه قائلاً :

ـ أريد الرجل الكبير يا عزيزى ..

ابتلع الفتى ريقه بصعوبه ، وقال :

ـ لكنه شقيق زوجتى ..

ـ سنعامل زوجتك بالرفق واللين كما نعاملك الآن ، وسأغرقها معك فى بحور الذهب ، إن زوجها يضغط عليها لكى تفعل ما تفعله .. أليس كذلك ؟!

نظر الأخ الواشى فى عينى الكاهن ، وقرأ فيهما أنه لا يمزح ..

وبعد قليل داهمت القوات منزل الأبوين ، وأسروا المرأة وطفلها ، والشيخين الكبيرين ، غير أنهم لم يعثروا لـ (شى) على أثر ..

* * *

(٥)

لم تعترف الزوجة تحت التعذيب الشديد بمكان زوجها لأنها لم تكن تعرف له مكانًا ، وعندما هددوها بتعذيب طفلها ولم تعترف ، عرفوا أنها صادقة ..

لجأ الكاهن إلى نفس اللعبة التى أثبتت نجاحها ، فأطلق بين العامة من يهمس بأن الزوجة وشقيقها والابن الصغير يلاقون أصناف العذاب من أجل الاعتراف بمكان الزوج زعيم عصابة نهب القبور ، وبلغ الأمر (شى) الهائم فى الطرقات بطبيعة الحال ، فغلى الدم فى عروقه ، وقرر عبور النهر إلى الغرب مع غروب الشمس ، وليكن ما يكون ..

وجد الطريق إلى المعبد يسيرًا للتسلل فأيقن أن فى الأمر خدعة ، لكنه لم يكن يملك سبيلا إلى تراجع وقد بلغ هذا الحد ..

فى البهو الرئيسى للمعبد رآها ، كانت الزوجة مقيدة - بمفردها - إلى عامود حجرى ضخم ، وهى تتنفس بصعوبة ، بينما تنزف جروحها بغزارة ..

هرع إليها (شى) ، فألقت إليه بنظرة أخيرة ، قبل أن يجلجل صوت الكاهن من وراء ظهره :

- أنت إذن (شى) ، الذى حضر لينال عقابه السماوى على تدنيس حرمة الموتى ..

استدار (شى) ونظر إليه ، فرآه يتقدم ومن خلفه حراس غلاظ أحدهم يمسك سيفًا ..

انعقد حاجبا (شى) وهو يصيح :

- تدنيس حرمة الموتى أهون من تدنيس حرمة الأحياء ..

تقدم منه الحارس الغليظ الذى يحمل السيف ، والكاهن الأكبر يصدر حكمه العادل :

- ألا تعرف أن جزاء من يدنس القبور هو الموت الأكيد ؟!

نظر (شى) حوله ، وكان يعرف أنها نظرته الأخيرة :

- أين طفلى ؟!

قال الكاهن :

- لا تخف ، سينشأ فى كنف المعبد مواطنًا صالحًا ..

عندها استراح قلب (شى) ، ونظر إلى السياف الذى مد يده فى سرعة ، وأطار رقبته بحركة سريعة خاطفة ..

طار رأس (شى) أمام عينى زوجته ، التى أطلقت صيحة من صميم لوعتها ، قبل أن يطير السياف رأسها بدورها ، ويسيل الدم فى بهو المعبد الرئيسى ..

قال الكاهن وقد اطمأن قلبه على منصبه أخيرًا :

ـ الآن تتحقق العدالة ..

عادت المقتنيات الثمينة إلى قبورها المغلقة من غرفة التخزين ، واختفى الأبوان تمامًا ، كما عاد الشقيق إلى منصبه كموظف فى ديوان عاصمة الشمال ، وقد حصل على براءة مكتوبة ممهورة بتوقيع أكثر من كاهن ، تراوده أحلام الثروة وكوابيس الجشع من حين لآخر ..

أما الطفل ، فقد نشأ فى قلب المعبد ، ورث من أمه عينيها الخضراوين ومن أبيه لحيته الخفيفة ، وعندما أصبح يافعًا أخذه كاهن غامض يدعى (تحوت) لينشأ فى قلب معبد فى أحضان جبل طيبة الغربى ، منحوت فوق زهرة (لوتس) بيضاء كبيرة ..

* * *

(٦)

الصحراء ، والقافلة المكونة من قزم ورجلين وامرأة تشق طريقها الرملى نحو أرض الأقزام تحت السماء والشمس والصقور الحائمة ..

تقدم (سنوب) من نقطة على الأرض الرملية ، وغرس فيها فرع الشجرة الجاف ، قائلاً :

ـ هنا نستريح ..

نظر الثلاثة إلى حيث أشار ، وجلس بجوار الفرع القائم ، فقال (حورى) فى ضجر :

ـ ما زال الطريق طويلاً ، وما زال فى استطاعتنا السير ..

اتجه (محب) للجلوس فوق صخرة منخفضة ، سارحًا بعينيه فى التأملات ، بينما حمت (نفرو) جبهتها من حمأة الشمس بكفها ، وهى تقول جالسة إلى جوار القزم :

ـ بعض الراحة لن تضر ، إننا نسير منذ مدة طويلة ..

أشار (سنوب) إلى الفرع الجاف قائلاً :

ـ هنا سقطت فى رحلتى الأولى إبان هبوب العاصفة الرملية ، لذا فهى المحطة الثانية شئت أنا أم أبيت ، هكذا تمضى بنا الرحلة فى نفس الطريق ..

تمتم (حورى) فى استياء :

ـ لا أفهم حرفًا مما تقوله ..

ومضى جالسًا ليواجه بظهره ظهر (محب) ، ويغرق فى الصمت بدوره ، فيما تابع (سنوب) ويده تمتد إلى خرجه :

ـ كان آخر ما رأيته فى سقوطى هو وجهها ..

ابتسمت (نفرو) قائلة :

ـ لابد أنها تنتظرك هناك منذ زمن ..

قدم (سنوب) إليها تفاحة أخرجها من الخرج ، وهو يقول فى وجد :

ـ كما تنتظرين أنت تحقق الحلم يا فتاتى ..

مدت (نفرو) يدها وأخذت التفاحة ، ومنعت نفسها من النظر إلى رفيقيها المتعاكسين ، لتقول :

ـ أنتظر تحقق الكثير من الأحلام ..

ابتسم وقال :

ـ ستنالين كل ما تتمنينه ..

نظرت إليه بعينيها الجميلتين ، وقالت بعد تنهيدة :

ـ المهم أن أعرف ما أتمناه ..

قال :

ـ ستعرفين وأنت تخوضين التجربة ..

قالت وهى تقضم من التفاحة :

ـ وكيف ذاك ؟!

قال :

ـ تذكرينى بالدرس الذى سوف ألقنه لك يا فتاتى ، فهو درس يليق بك كامرأة تتوق إلى معرفة ما يريده قلبها ..

* * *

الدرس الثانى

كن كاذبًا

(١)

قال القزم (سنوب) : -

- الكذب هو عدم مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ومداراة الحقائق لصالح ما يختلقه العقل من زيف .. فى أرض الأقزام نحن نكذب ، ندارى الحزن عن عيون الثكالى ، ونلون الحقائق حتى تصبح أجمل ، ونوهم أنفسنا أن الغد آت حتى يأتى بالفعل .. كن كاذبًا ، فعندما يصبح الصدق كذبًا ، يكون الكذب هو أصدق ما يمكنك قوله ..

* * *

دعينى أقص عليكِ قصة أخرى وقعت فى زمن بعيد ..

قصة الطفلة التى تفتحت عيناها كزهرة لوتس على مشهد الرحيل المهين ، من القصر الواسع إلى المنزل الحقير المطل على أحراش النهر ، حيث يسكن الفقراء ..

كانت طفلة جميلة ، لها عينان واسعتان ، وشفتان مكتنزتان ، وشعر طويل ينهمر كشلال من الليل الأسود على ظهر ثوبها الكتانى الأبيض ، تمسك فى يدها دمية من الخشب ، واليد الأخرى لا تفارق يد أمها ، المرأة التى أخذت عنها الملامح المليحة ، بالذات العينين اللتين تحجرت فيهما الدموع من كثرة ما ذرفتها طوال الأيام الماضية ، منذ بلغها نبأ الرحيل ..

كانت الطفلة تسير إلى جوار الأم بمحاذاة ضفة النهر ، أحراش البردى الكثيفة ومستنقعات الطين على يمينهم ، والبيوت المتواضعة ذات السقوف المتداعية على يسارهم ، وأمام عينيها ظهر أبيها الضخم يسير الهوينى ، يجرجر قدميه وهو يتنهد ، ساحبًا خلفه البقرة الوحيدة التى استطاع الخروج بها من قصره العامر ..

أعنى قصره الذى كان عامرًا ، قبل أن تتراكم ديون الترف على كتفيه ، فيطالب الدائنون بحقوقهم ، وتحجز الشرطة على القصر والعبيد والثروة ، ويتعين عليه الخروج مهزومًا مدحورًا بصحبة زوجته وابنته ، والبقرة ، والقليل جدًا من المدخرات التى ستعينهم بالكاد على البدء من نقطة الصفر مرة أخرى ..

أطل الجيران بوجوه كالحة من نوافذ البيوت المنخفضة ، ومصمصوا الشفاه على العز الغابر ، والمجد المندحر ، وكانت الهمهمات تصيب الرجل بسهام من نار فى كبده ، وتشعل آلام المرأة التى لم تعرف الفاقة طوال عمرها ، أما الطفلة فكانت تلاعب دميتها فى براءة ، وقد جسدت لها الدمية فى تلك اللحظة العالم بكل ما فيه ..

سكنت الأسرة الصغيرة منزلا منزويًا يطل على المستنقع ، ووضع الأب البقرة فى غرفة خاصة وأغلق عليها الباب جيدًا ، وأخذت الأم تعيد التعرف على واجباتها المنزلية التى أراحها الخدم منها منذ كانت طفلة فى منزل أبيها الذى مات ، بينما انطلقت الطفلة تلهو عند ضفة النهر ، وقد أسعدها مناخ الحرية الذى لم يتوافر لها من قبل داخل أسوار القصر ..

- لابد أنك جارتنا الجديدة ..

سمعتها الطفلة من وراء ظهرها ، فاستدارت لترى الصبى الذى وقف ناظرًا إليها وعلى شفتيه بسمة مريحة ..

ملابسه ممزقة ، وشعره مشعث ، والخدوش تملأ جسمه ، وقدماه غارقتان فى الطين ، وهو يمد إليها يده القذرة ، فهزت كتفيها وابتسمت ، وتلوثت يدها عندما صافحته ..

أخبرها باسمه ، وأخبرته باسمها ، وأشار هو إلى منزل قريب قائلاً :

- أسكن فى ذاك المنزل مع أبى وأمى وأشقائى ..

قالت الطفلة :

- لا أشقاء لى ..

ابتسم الطفل مشيرًا إلى صدره :

ـ اعتبرينى شقيقًا لك ، فلا شقيقات لى أنا الآخر ..

ابتسمت ووافقت ، وانطلقا يلعبان على ضفة النهر ..

نادتها الأم من داخل المنزل ، فاعتذرت من شقيقها الجديد وهرولت نحو المنزل الجديد ، كانت الأم تنتظرها لكى تأخذ حمامًا وتمشط شعرها بعد غمسه قليلاً فى الزيت ..

أما الأب فقد ترك المنزل وعاد عند الغروب حاملاً قارورة من الشراب ، وقضى الليل بطوله يشرب ويتجشأ ويتذكر ، تتابعه عينا الأم المهمومتين وهى تعد مدخراتهما المحدودة ، وتحاول إيجاد طريقة لمحاورة زوجها ، وإقناعه فى البدء بالبحث عن عمل يكفل لهم الحياة مجددًا ، أما الطفلة فقد كانت نائمة إلى جوار دميتها الخشبية ..

وهى تحلم بلقاء شقيقها الجديد غدًا على ضفة النهر ..

* * *

(٢)

مضت الأيام وساءت الأحوال ..

أدمن الأب الشراب وعلا صياحه فى مواجهة زوجته كلما حاولت إثناءه عما يفعل ، وكلما حاولت أن تطلب منه البحث عن عمل ، لأن المدخرات تنفد وهو يبعثرها دون حساب ، وكان هو يثور معنفًا إياها ومذكرًا بأنه نبيل من سلالة نبيلة ، ولا يصح أن يهبط بمستواه للبحث عن عمل حقير من أعمال الطبقة الوضيعة ..

كانت الابنة تهرب من ذلك إلى النهر ، حيث تلهو مع دميتها ، وتشارك ابن الجيران الذى يماثلها فى السن اللعب والركض والصياح والحكايات العجيبة ، وتعود آخر النهار منهكة ، لتجد أمها تبكى ، وأبوها قد حصل على ما يريد ، وذهب لإحضار المزيد من الشراب ..

كانت ترمى نفسها فى حضن أمها ، بينما يتصاعد خوار البقرة من وراء الباب المغلق ، فتنهض الأم وتعود للابنة ببعض الحليب ، فتشربه قبل أن تنام وهى تتبسم لأمها ..

لكن الأيام مضت ، والأحوال ساءت ..

أثناء لعب الطفلة عند ضفة النهر ، سمعت الصياح المعتاد من داخل المنزل ، حاولت تجاهله والاستمرار فى اللعب ، لكنه كان مصحوبًا هذه المرة بأصوات ارتطامات ، وتأوهات ، وكان حدته تتزايد إلى درجة رهيبة ، صحيح أنه انتهى كالمعتاد

بأبيها يخرج قابضًا على قطع الفضة الباقية مثل كل مرة ، لكن فطرة الطفلة أنبأتها بأن شيئًا ما ليس على ما يرام ..

لذا فقد عادت إلى المنزل فورًا ..

دخلت ، وسمعت نشيج أمها المكتوم ، لم يكن هذا جديدًا ، الجديد كان فى الفوضى التى تعم محتويات المنزل البسيطة والمتواضعة ، كأن حربًا صغيرة قد قامت هنا ..

كانت الأم تخفى وجهها بين كفيها ، واقتربت منها طفلتها مربتة على كتفها ، وقائلة :

ـ لا تحزنى يا أمى ..

أجهشت الأم بالبكاء أكثر ، وأزاحت الطفلة طفيها عن وجهها لترى ما لن تنساه طوال عمرها ، آثار الكدمات والجروح على الوجه النازف بالدم ..

شهقت الصغيرة وقالت فى فزع :

ـ .. أماه ، إنك مريضة !

قالت الأم وهى تتمالك نفسها ، وتمسح الماء عن أنفها بظهر يدها :

ـ لا عليك يا صغيرتى ، أنا بخير ..

كانت الأم تكذب ، عرفت الصغيرة هذا ، إنها تكذب حتى لا تؤذى مشاعرها ، فهى ليست بخير على الإطلاق ، بغض النظر عن جروحها الظاهرة ..

جرح الروح أعمق بكثير ، وعويص على الكشف والعلاج ..

أخفت الصغيرة كل ما شعرت فى نفسها ، وقالت :

ـ لا تخافى ، سأعالجك كما أعالج دميتى عندما تمرض ..

ونهضت الفتاة لتعود بقماش وإناء من الفخار يحوى بعض الماء ، وأخذت تنظف الجروح بيد ماهرة ، جعلت أمها تبتسم وتقول :

ـ كنت أتمنى أن تصبحى طبيبة عندما تكبرين ..

قالت الفتاة وهى تمارس عملها بمهارة طبيبة صغيرة السن :

ـ أنا الأخرى أتمنى أن أصبح طبيبة عندما أكبر ..

تنهدت الأم وقالت :

ـ لا أعلم إن كنت سأشهدك وأنت كبيرة أم لا ..

سألت الطفلة فى براءة :

ـ ماذا تعنين يا أمى ؟!

ـ لا شئ يا حبيبتى ..

قالتها الأم ثم نهضت نحو البقرة داخل الغرفة ..

ـ .. سأحضر لك بعض الحليب ..

* * *

(٣)

أخذت الصغيرة تربط ركبة صديقها الصغير بقطعة من القماش على ضفة النهر ، وكان هو يجاهد لإخفاء ألمه ، ويقول كاذبًا :

ـ لا أشعر بأى ألم ..

قالت الصغيرة بلهجة أكبر من سنها بكثير ، وهى تضع على الرباط لمستها الأخيرة :

ـ انتبه لنفسك جيدًا ، فلو تلوث الجرح يمكن أن تفقد ساقك كلها ..

سألها الصبى فى دهشة :

ـ وكيف عرفت هذا ؟!

أجابته :

ـ أمى دارسة للطب فى مدرسة (أون) ، وهى تعلمنى الكثير ..

أشار الصبى أيضًا لمنزله القريب ، وقال :

ـ أبى أيضًا درس الطب ، ودرس أشياء أخرى كثيرة ، ويقول عن نفسه أنه كان كاهنًا قبل أن يطردونه من المعبد بسبب زواجه من أمى ..

سألته :

ـ وهل كانت والدتك من أصل متواضع حتى يطرده الكهنة بسبب زواجه منها ؟!

ـ كلا ، على العكس ، كانت ابنة كاهن المعبد الأكبر بنفسه ، لكنه كان يطمح فى تزويجها إلى من يفوقه حسبًا وشرفًا ، ولما تزوجا من وراء ظهره ، طردهما شر طردة ، فهاما على وجهيهما حتى هنا ، وأنجباني ، هذا ما ترويه أمى ..

نظرت الطفلة إلى دارهم ، بعد قليل سوف يبدأ الشجار اليومى الذى يحيل الحياة إلى جحيم مستمر ، ثم نقلت بصرها إلى منزل الصبى المجاور لهم ، إن أباها يفرض عليهم عزلة عن جميع المحيطين ، ولا يرفض مجرد صداقة المحيطين بهم ، بل مجرد التعرف عليهم والكلام معهم ..

مأساة أبيها تكمن فى إصراره على الحياة فى الماضى الذى ذهب ولن يعود ، ولن يستطيع استحضاره مهما غرق فى دوار الشراب ..

لم تستطع الطفلة منع نفسها من التساؤل :

ـ وهل يعيش أبواك حياة سعيدة ؟!

أجابها وهو يهرش فى شعر رأسه :

ـ إنهما يضرباني أحيانًا عندما أخطئ ، وفيما عدا ذلك فإنهما ...

وتذكر أمرًا ، فبتر عبارته مستدركًا :

ـ .. بالمناسبة ، أبى يخفى أنه كان كاهنًا على الجميع ، فلا تقولى لأحد أننى أخبرتك ..

سألته فى استغراب :

ـ ولماذا يفعل ذلك ؟!

هز الصبى كتفيه ، وقال :

ـ يقول إن للكهنة سمعة سيئة بين الفقراء ، وأنه لا يريد أن يخسر أصدقاءه الذين كونهم هنا بسهولة ..

الكاهن السابق إذن يكذب ، حتى يكسب الحب والمودة ..

هكذا فكرت الطفلة الصغيرة ، لكنها لم تعرف سبب السمعة السيئة التى اكتسبها الكهنة بين الفقراء كما يقول شقيقها الذى لم يلده أبواها ..

لم تعرف إلا متأخرًا ..

* * *

(٤)

بدأت المتاعب تزداد ، فبجانب أن أمها قد أصبحت تصاب بكدمات جديدة وجروح جديدة وتنزف دمًا ودموعًا كل يوم ، أتى الكهنة إلى هذه المنطقة عند الفجر ..

طرقوا الأبواب ، وقالوا لأمها :

ـ نريد حصة المعبد من أموالكم ..

نادت الأم على زوجها الذى صحا بمزاج متعكر من فرط السهر والشراب ، وقال للكهنة الصلع الواقفين أمام الباب :

ـ لا أموال لدينا ..

قال أكبرهم :

ـ يمكننا أخذ أشياء عينية ، طعام ، ماشية ، أوانى ، مجوهرات ..

قال والد الطفلة فى جفاء ، ورائحة الخمر تفوح من فيه :

ـ لا نملك شيئًا على الإطلاق ..

ابتسم أكبرهم قبل أن يقول :

ـ سوف أصدقك وأغادر ، لكننا لو اكتشفنا أنك تخفى عنا شيئًا ، فجزاءك سيكون عسيرًا مع حرس المعبد ، فحق المعبد لا يضيع أبدًا ..

هتف الرجل فى ثورة :

ـ اذهبوا وخذوه من الأثرياء والقادرين ..

قال أكبرهم :

ـ الأثرياء والقادرون يأتون إلينا ولا نحتاج للذهاب إليهم ، أما أنتم فلا تأتون ، ويجب أن نهبط إليكم بأنفسنا حفاظًا على حقوقنا ، وحقوق الآلهة التى تحمى البلاد ..

أصر الأب على موقفه :

ـ لا نملك شيئًا ..

قال أكبرهم وهو يبتسم فى خبث بسمته الأخيرة :

ـ سنرى ..

أغلق الأب باب المنزل فى وجوههم ، وكاد يعود إلى فراشه عندما غمغمت زوجته فى وجل ، حتى لا توقظ الطفلة النائمة :

ـ لماذا لم تصارحهم بأمر البقرة ؟! ربما رق قلبهم لحالنا وتركوها لنا ..

زمجر قائلاً وهو يتجه إلى فراشه الخشن :

ـ هؤلاء بطونهم أوسع من البحر المالح ، لو عرفوا لما تركوها وهى كل ما لدينا ..

هتفت فيه وقد فاض بها :

ـ بل كل ما لديك لتبيعها وتنفق على شرابك وخيبتك القوية ..

نظر إليها بعينين ضربهما برق ورعد ، وكانت النتيجة معروفة ..

لقد صحت الطفلة على أصوات الشجار والارتطامات ، قبل أن يغادر الأب وهو يزمجر ، ونهضت الطفلة تضمد الكدمات الجديدة التى منيت بها أمها المسكينة فى وجهها وذراعها ..

ـ لم أعد أحتمل ..

قالتها الأم ، فقالت الطفلة وهى تضمد جرحًا فى يدها بقماشة مبتلة :

ـ ارحلى يا أماه ..

نظرت الأم إلى طفلتها فى دهشة ، فقالت الطفلة :

ـ .. لا أحتمل رؤيتك هكذا ، يجب أن ترحلى قبل أن أصحو فلا أجدك ..

ضمتها الأم إلى صدرها :

ـ وأنتِ يا صغيرتى ؟!

قالت الطفلة بلهجة صلبة :

ـ سأعرف كيف أعيش ..

غمرت الأم وجه طفلتها ورأسها بالقبلات ، وعادت تضمها إلى صدرها ، وقد انتقلت القوة من قلب طفلتها إليها ، فلملمت أغراضها فى عتمة الليل ، ورحلت ..

لم تأخذ معها طفلتها لأنها لم تعلم إلام سينتهى بها الحال ، يقال أنها لقت حتفها من الجوع والعطش ، ويقال أنها وهبت نفسها لأحد المعابد واعتزلت الدنيا حتى يومنا هذا ، ويقال أيضًا أنها قد تزوجت بثرى آخر وعادت إلى المستنقعات بعدها بشهور فلم تجد زوجًا ولا طفلة ، ولم يرو لها أحد ما حدث بعد رحيلها بأيام قليلة ..

لقد عاد الكهنة وقد عرفوا بالحقيقة ، وقال أكبرهم للأب :

ـ نريد البقرة التى فى حوزتك ..

صرخ الأب :

ـ إنها كل ما أملك ..

أمسك حرس المعبد بذراعيه ودخل الكهنة ليخرجوا بالبقرة التى هزلت وباتت ضلوعها من قلة الطعام ، واعترى الجفاف ضرعها ، وقال أكبر الكهنة :

ـ وستنال عقابك على كذبك علينا ، ألا تعلم يا رجل أن الكذب رذيلة تلقى بصاحبها فى هلاك الجحيم الأبدى ؟!

ربطوا ذراعيه بحبل طويل ، ووضعوا نهاية الحبل فى عرية يجرها ثور ، وانهال السوط على الثور فجرجر جسد الرجل على الأرض الخشنة ، وضاعت صرخاته فى السماء ، بينما نظرات ابنته الطفلة تتابعه من بين أحراش البردى ، وتتابع الكهنة الذين اختفوا آخذين البقرة إلى المعبد ..

أفزعها صوت من خلف كتفها :

- أبى يريد رؤيتك ..

التفتت ورأت صديقها الصبى ، وذهبت معه إلى أبيه الذى استطال شعره كثيرًا ليخفى حقيقة كونه كاهنًا سابقًا ، وقد قال فى عطف افتقدته مع رحيل والدتها :

- أصبحت الآن بلا أب أو أم ، فتعالى معنا واعتبرينا أسرتك الجديدة ..

فهزت رأسها فى سعادة ، ولم تمض أيام حتى عرفها والدها الجديد على أحد الكهنة القدامى الذين استمروا فى زيارته بعد خروجه من المعبد ..

استمع الكاهن الغامض إلى رغبتها فى دراسة الطب مثل والدتها ، فأرسلها إلى الشمال لتنشأ فى أحضان معبد ترتسم على واجهته زهرة لوتس ، وتدرس الطب فى مدرسة (أون) ، وتكبر لتصبح شابة جميلة ..

وزهرة لوتس فاتنة ..

* * *

(٥)

نظر (محب) إلى البئر الذى التمع ماؤه الأسود تحت سماء الليل المظلمة ، وتساءل :

- هل أنت واثق من أن ماء البئر مسموم فعلا ؟!

هز القزم (سنوب) كتفيه أمام النار المشتعلة ، وقال :

- هذا ما أخبرتنى به المرأة الجميلة التى يزين طابع الحسن ذقنها ..

وضع (حورى) قطعة من الخشب على النار التى أشعلها لإبعاد الضوارى ، وقال :

- ستقول إنها المحطة الثالثة ، وسوف تتحدث عن دروس الحياة ، إلى آخر هذه العبارات العجيبة التى تستخدمها ..

نظر (سنوب) إلى الفرع الجاف الذى غرسه على مقربة منه ، وقال :

- إنها الحقيقة ، الرحلة أوشكت على نهايتها يا أحبائى ..

غمغم (محب) وهو يرسل بصره إلى (نفرو) التى افترشت الأرض القريبة ، وشردت فى مراقبة نجوم السماء السوداء اللانهائية :

- أتعشم أن تنتهى قبل أن ننتهى نحن ..

سمعه (سنوب) لكنه تجاهل عبارته وابتسم ، أما (حورى) فقد قال فى خيبة أمل :

ـ يا لها من مهمة سهلة ، ليت كل المهام تكون كذلك ..

نظر (سنوب) فى عينيه اللتين التمع فيهما لهب النار البرتقالى ، وقال :

ـ أنت تعشق الصعاب وتهوى المغامرة والتحدى ، أليس كذلك ؟!

لم يجبه (حورى) ، فتابع :

ـ .. عيناك تنطقان بكل شىء ..

جلس (محب) إلى جوار (حورى) وقال :

ـ إنه محور الدرس الثالث إذن ، لم يبق سواه كما أرى ..

ـ بالفعل ..

قالها (سنوب) وهو يخرج تفاحة من خرجه ، مناولاً إياها إلى (حورى) الذى أخذ ينظر إليها دون أن يمد يده ، فتابع القزم :

ـ .. ألا تريد أن تتذكرنى بشىء يا عزيزى المقاتل ؟!

مد (حورى) يده وأخذ التفاحة ، قائلاً وهو يهز كتفيه :

ـ لا بأس ..

التمعت عينا (سنوب) بالحبور وهو يقول :

ـ إليك يا عزيزى المقاتل الدرس الثالث ..

* * *

الدرس الثالث

كن خائنًا

(١)

قال القزم (سنوب) :

ـ الخيانة تبديد للأمانة ، ورفض للانتماء ، وتمرد على الثقة الممنوحة .. فى أرض الأقزام نحن نخون ، نخون الغضب ، ونخون القهر ، ونخون الذل ، ونخون الكبر ، ونخون الخيانة نفسها .. كن خائنًا ، وبدد السواد الذى فى داخلك ، وارفض انتماءك للظلام ، وتمرد على الثقة التى يمنحها لك من ليس أهلا للثقة ..

* * *

سأقص عليك قصة ثالثة تعود إلى زمن ليس قريبًا ، بل تستطيع القول أنها تعود إلى زمن موغل فى القدم دون أن يجانبك الصواب ..

لا أخالك تجهل قصة (إيزيس) و(أوزوريس) ، الأسطورة التى يحكونها منذ بدء الخليقة ، والتى تتكرر عبر الأحقاب ، وستظل تكرر نفسها عبر السنين إلى ما لانهاية ، حتى تنتهى الحياة من فوق سطح الأرض ..

كلا ، ليست قصتى هى الأسطورة ، فبالرغم من أن وقائعها تشابهها كثيرًا ، إلا أنها تختلف عنها كثيرًا فى الوقت نفسه ، وسأترك لك مهمة إدراك أوجه التشابه والاختلاف بنفسك ..

كان هناك أخوان ، توءمان ، متماثلان فى كل شىء ، يتشابهان فى الهيئة ويتنافسان على موقع الأفضل ، نشآ فى بيت موسر ، ابنان لرجل ثرى أعطته تجارته عبر البلاد فوق ما حلم به ، مما مكنه من تجاوز جذوره المتواضعة بالغًا أفق النبلاء وكبار رجال الدولة والدين ..

كان كل منهما يحب الآخر ، ويساعد الآخر ، ويهب لنجدة شقيقه عندما يحتاج إليه ، ولم يكن يتخيل أى منهما أن يفرق بينهما مفرّق ، حتى عندما مات أبواهما لم يختلفا على تقسيم الميراث ، بل كاد كل منهما يهب للآخر فوق نصيبه أضعافًا مضاعفة ، وتآزرا على تجاوز المحنة ونال كل منهما بيتًا جميلا وثروة هائلة ..

لم يكن أحد فى المدينة يتخيل أن يفرق بين الأخوين مفرق ، لكن المرأة دائمًا فتنة ، كأنما خلقت لتزرع الأشواك

فى قلوب الرجال ، وتوقع العداوة والبغضاء بين الشقيقين ، ربما دون حتى أن تدرى هى نفسها هذه الحقيقة المريرة ..

لقد أحب الاثنان ، أحبا نفس الفتاة ، ودعنى أطلق على الفتاة الاسم الذى اختارته لها الأسطورة ، اسم (إيزيس) الجميل ..

كانت (إيزيس) من الفتيات اللواتى خلقن للحب ، بمجرد أن تراها سوف تتمنى لو وقعت فى هواها ، ولن تمنع نفسك من أن تحلم بها زوجة لك ولو لثوان معدودة ..

لقد أحب الاثنان ، أحبا (إيزيس) ، ولم تكن هذه هى المشكلة ، وإنما كانت المشكلة أن (إيزيس) أحبت واحدًا منهما فقط ، أحبته حبًا حقيقيًا لأن قلب المرأة غير قابل للقسمة على أكثر من الواحد الصحيح على الإطلاق ..

اختارت (إيزيس) الأخ الأكبر حبيبًا وأخًا وشريكًا فى رحلة الحياة ، وبدأ الاستعداد لمراسم الزواج ، وكما هو متوقع فقد أكل الحسد قلب الأخ الأصغر ، لأنه كان يرى ـ بطبيعة الحال أيضًا ـ أنه الأحق بقلب الفتاة ، وأن شقيقه إنما سلبها منه سلبًا ، فبدأ يعد العدة للانتقام الخفى ولمحاولة أخيرة يائسة للفوز بقلب (إيزيس) ..

فى ليلة الزفاف ، بعد أن دخل الزوجان غرفتهما ، طرق الأخ الأصغر الباب فخرج له أخوه الأكبر ، واندهش لمرآه فى ليلة كهذه وفى وقت شديد الخصوصية كهذا ، فابتسم الأخ الأصغر فى طيبة وقال :

ـ ماذا أفعل والرفاق مصرون على دعوتك على العشاء فى قصرى ، وفى هذه الليلة بالذات؟! إنهم جميعًا ينتظرون هناك ..

قال الأخ الأكبر مقطبًا :

ـ لكن .. هذه ليلة زفافى !

غمزه الأخ الأصغر وقال :

ـ أعلم ، أعاهدك ألا تتأخر أكثر من المطلوب ، فقصرى مجاور لقصرك ، والرفاق سيحملونك إلى هنا على محفة خاصة من الذهب الخالص بعد العشاء ..

نظر الأخ الأكبر إلى الداخل ، وهمس :

ـ لكن .. زوجتى ..

قاطعه الأخ الأصغر :

ـ لن تغضب عندما تعرف أنك كنت معنا ، ولن تغيب عنها طويلاً ..

فكر الأخ الأكبر للحظات ، ثم حسم أمره باسمًا :

ـ انتظرنى ، سأعود إليك فى خلال دقائق ..

دخل الأخ الأكبر إلى مخدعه ، واستأذن من العروس فى الذهاب لحفل الأخ الأصغر والعودة سريعًا ، فابتسمت وقالت :

ـ لأصدقائك عليك حقًا ..

قال لها بلهجة ذات معنى :

ـ وأخى أيضًا ..

ثم إنه غادرها ، وظلت تنتظره طوال الليل ، لكنه لم يعد أبدًا ..

* * *

(٢)

ما حدث ليلتها كان يفوق الخيال ، فقد أعد الأخ الأصغر مؤامرة لأخيه على مائدة العشاء حتى يزيحه عن طريق (إيزيس) ..

كلا ، لم يقتله ولم يضعه فى تابوت ولم يمزقه إربًا ولم يدس له السم فى الطعام ..

كان أدهى من ذلك ، وأمكر ..

لقد أعد له مأدبة عشاء فخمة ، وأجلسه إلى جوار امرأة جميلة ، بمجرد أن رآها الأخ الأكبر طار صوابه ، وخلبت لبه ، ولم يعد يقوى على رفع عينيه من فوق وجهها الضحوك ..

ما لم يعلمه الأخ الأكبر ، أن الأخ الأصغر كان قد أعد له سحرًا خاصًا عند كاهن أريب ، وأنه قام برش السائل السحرى عند باب القصر حيث عبر الأخ الأكبر من فوقه فى ليلة زفافه ، ليقع فى هوى أول امرأة يراها بعدها ، وكان الأخ الأصغر قد دفع الكثير من الذهب لهذه المرأة حتى تتزين وتصبح فى أبهى صورة ، ليقع أخوه فى حبها بمجرد رؤيتها ..

وقد كان ..

قبل مطلع الفجر أسرّ الأخ الأكبر للمرأة بحبه ، فقالت :

ـ نهرب معًا ..

قال :

ـ الآن وليس الغد ..

وكانت العربة جاهزة أسفل القصر لتقلهما إلى المكان الذى يريداته ، محملة بجرار مملوءة بالمجوهرات ، وعندما سأل الأخ الأكبر مندهشًا :

ـ من أين أتت كل هذه الثروة ؟!

أجابه الأخ الأصغر من وراء ظهره :

ـ إنها ثروتى يا أخى الأكبر ، أمنحها لك حبًا وكرامة ..

سأله الأخ الأكبر :

ـ والمقابل ؟!

فرقع الأخ الأصغر بإصبعيه ، فهرول أحد موظفيه نحوه حاملاً برديات كثيرة ، وقال الأخ الأصغر فاردًا إحداها :

ـ اعتبرنى قد اشتريت منك كل أملاكك ، بما فيها قصرك ..

ولم يقل : وزوجتك ..

وقع الأخ الأكبر البرديات فى سرعة ، ودون أن ينظر نحو قصره المجاور ، ودون أن يتذكر أن هناك من ينتظره ، ركب العربة وانطلقت بهما بعيدًا ..

بعيدًا ..

شيعها الأخ الأصغر بنظراته المتأملة حتى غابت وراء الأفق الذى يشرق من خلفه أول بصيص من ضوء الفجر ، وغمغم لنفسه :

ـ الآن أصبح الطريق ممهدًا إلى غايتى المنشودة ..

* * *

(٣)

كانت (إيزيس) بطلة قصتنا تعرف ـ كما نعرف جميعًا ـ (إيزيس) بطلة الأسطورة ، وتفخر بأنها تحمل اسمها بين صديقاتها وجواريها ، وعندما استيقظت فى النهار ولم تجد زوجها إلى جوارها بدأ الشك يمرح فى صدرها ، وعندما دخلت عليها إحدى الوصيفات لتخبرها أن شقيق زوجها الأصغر يطلب رؤيتها ، تعاظم الشك فى صدرها ، وسمحت له بالدخول لرؤيتها بعد أن أخذت حمامًا صباحيًا دافئًا ..

دخل الأخ الأصغر وخلفه الموظف يحمل البرديات ، وعندما رأى شعر (إيزيس) مبتلا ابتسم فى سخرية وقال :

ـ هرب زوجك مع عشيقته ، لقد رأيتهما يفعلان ذلك من نافذة قصرى ..

صرخت فيه :

ـ يا لك من مخادع ، لقد قتلته بالتأكيد كما تقول الأسطورة ..

قال لها :

ـ لسنا فى أسطورة ، وإنما نحن على أرض الواقع ، وأنا لا أقوى على قتل شقيقى مهما حدث ..

صرخت :

ـ قتلته لأنك تحبنى وتريدنى ..

قال :

ـ أما هذه فحقيقة ، وما زلت أريدك زوجة لى ..

صرخت :

ـ هذا لن يكون ، سأعيش على ذكرى زوجى وأنجب طفلاً يثأر لذكراه ..

هز كتفيه :

ـ لكنه لم يمت ، أقول لك إنه هرب مع امرأة ..

ـ هو لا يفعلها ، إنه يحبنى واختارنى زوجة ، أنت تريد أن تصمه بالخيانة كما خنته أنت ، لابد أنك وضعته فى تابوت بعد أن مزقته إربًا ..

ضحك الأخ الأصغر من سذاجتها ، وأشار لموظفه الحامل للبرديات ، وناولها واحدة قائلاً :

ـ بِمَ تفسرين هذا إذن ؟!

فردت البردية الملفوفة وقرأتها بنصف تركيز ، قبل أن تعاودها نوبة الصياح :

ـ هذا دليل يدينك ولا يشهد لك ..

سألها مندهشًا :

ـ كيف يدينني وقد باع لى كل ممتلكاته ودفعت له الثمن ليهرب مع المرأة التى أرادها ؟!

قذفت البردية فى وجهه :

ـ لقد قتلته وزورت توقيعه ..

قال لها مهونًا :

ـ فكرى بعقلك ، لقد باع لى كل شيء بإرادته ، ووقع على عقد بيعك لى أيضًا ..

صرخت فيه :

ـ أنا من الحرائر ، ولست جارية له اشتراني حتى لييبغى ..

هنا صرخ فيها :

ـ غادرى قصرى إذن غير مأسوف عليك ، ولا تعودى إلا لو كنت تريدينني زوجًا لك ..

قالت :

ـ سأعود ، وسيعود معى ابنى ليأخذ ثأر أبيه ..

وعندما خرجت ، مزق الحزن قلب الأخ الأصغر ، وفكر فى أنها ستعود فى الغد بالتأكيد عندما لا تجد مكانًا يأويها ..

* * *

(٤)

لكنها لم تعد ..

سافرت إلى الدلتا ، وبدأت تؤمن بأن أسطورة (إيزيس) تكرر نفسها فيها ، عندما بدأ بطنها ينتفخ بعد ليلة زواجها الأولى فقط ..

ستنجب الابن الذى يأخذ الثأر إذن ..

عاشت حياة صعبة ، عملت فى أوضع المهن ، كانت ولادتها متعسرة ونجا طفلها من الموت بأعجوبة ، وعادت إلى عملها بعد عدة أيام من الولادة فقط ، حتى تؤمن لطفلها السكن والزاد ، وحتى تؤمن مصروفات تدريبه ليشب مقاتلا ..

مضت سنون ، كبر الطفل قليلاً ، حاولت تعليمه فنون القتال لكنها اكتشفت أنها لا تعرفها ، فعملت بجد أكبر ، لفترات أطول ، حتى انكسر ظهرها ، لكى توفر له مدربًا خاصًا من المرتزقة يعلمه الصيد واستخدام الاسلحة والقتال والرماية وركوب الخيل ..

مضت سنين وكبر الطفل أكثر ، أصبح صبيًا مفتول العضلات ، وكانت (إيزيس) كلما أخذته فى حضنها ، أغمضت عينيها

وحلمت بيوم الثأر البعيد ، ثم أسرعت بإبعاده عنها حتى لا ينمو عاطفيًا حساسًا ، وهى تريده أداة قتل ليس إلا ..

أداة قتل العم الذى قتل أباه منذ سنين ..

عندما لم تعد إلى القصر بحث الأخ الأصغر عنها طويلاً ، واهتدى بعد لأى إلى موقعها ، حاول إقناعها بأن تعود وتصبح زوجة له ، لكنها أشارت إلى ابنها وذكرته بالأسطورة وبيوم الثأر ، جاهد لإقناعها بأن أخاه الأكبر لا يزال حيًا حتى اليوم ، وأنه يعرف عنوانه الذى يقيم فيه الآن مع زوجته الأخرى ، ويرسل إليه بانتظام ما يكفيه من ذهب يكفل معيشة فخمة ، لا تتناسب مع الشدة التى تعيشها مع ابنها ، وابنه ، ويمكنها أن تتأكد بنفسها لو جاءت معه ، لكنها أبت أن تصدقه ، وسدت أذنيها عنه ، وطردته من منزلها شر طردة ..

حاول وحاول ، لكن محاولته ذهبت أدراج الرياح ..

ولم يجد أمامه إلا أن يدفن همومه فى العمل ، وإنماء الثروة ، وانتظار يوم لن يجىء ..

أما الأخ الأكبر فقد كان يعيش اللذة صافية مع المرأة الجميلة فى قصر شمالى ..

لا يتذكر أبدًا أن له زوجة ..

ولا يتصور أبدًا أن له ابنًا تعده للأخذ بالثأر

بثأره هو !

* * *

(٥)

ثم أتى اليوم الذى انكشف فيه كل شىء ..

كانت (إيزيس) فى سوق (منف) تحمل قفة من الخوص ، لتبيع ما عليها من عيدان الجرجير والكرفس والبقدونس ، عندما رأته ..

رأت زوجها ، الذى ظنته مات مقتولاً منذ سنين ، فى ملابس فخمة ، وبشرة ناعمة ، وشعر مصفف ، وضحكة عالية ، يسير بين حراس ، إلى جوار امرأة تتلوى كالثعابين ..

سقطت العيدان الخضراء من بين يديها ، ومادت بها الأرض ، لكنها تماسكت ، وهرولت نحوه ، فمنعها الحراس من الاقتراب منه ، وعندما نظر إليها لم يعرفها ، وألقى نحوها بقطعة من الفضة لأنه ظنها متسولة تطلب الحسنة ..

وقد آلمها هذا كثيرًا ..

أكثر مما يمكن أن يتصور أى إنسان تألم من قبل ..

صحيح أن الأيام القاسية قد نحتت وجهها بشكل مختلف عما كانه أيام كانت تعيش فى النعيم ، لكنها لم تتصور أنه هو بالذات يمكن ألا يعرفها ..

هو بالذات ..

بكت طويلاً فى منزلها بعد أن طردت مدرب ابنها ، وظل ابنها يواصل تمارينه فى العراء منتظرًا يوم تطلب منه أمه تنفيذ تلك المهمة ؛ التى لا تكف عن الحديث عنها ، والتى نذرته من أجل تنفيذها عندما يكبر ..

نظرت إليه وفكرت ، إنها لن تنتظر أن يكبر حتى يأخذ بثأر أيامها التى ضاعت هباء ..

ستأخذ ثأرها بنفسها ..

بذراعها هذا ..

فكرت وخططت ، وبدأت التنفيذ على الفور ..

عرفت الطريق إلى قصر الأخ الأكبر ، ووجدت طريقة للانضمام إلى صفوف الخادمات ، وفى يوم مشمس كان يتريض فيه فى حديقة القصر لم تكذب خبرًا ، وانهالت بسكينها على قلبه قبل أن يلحق بها الحرس والخدام ..

هنا فقط انفك السحر ، ونظر إليها الزوج والحبيب والقديم هاتفًا :

- (إيزيس) ؟!

هتفت فيه من بين دموعها :

- أجل ، (إيزيس) التى خنتها سنين طويلة ، تخون خيانتك اليوم يا حبيب القلب ..

لم يستطع الأطباء اللحاق به ، فلفظ أنفاسه الأخيرة ، وحوكمت (إيزيس) بتهمة قتله ، فقتلوها فى ساحة المعبد الكبير ، وتمزق قلب الأخ الأصغر مرتين ..

مرة لفقد الأخ ، ومرة لفقد الحبيبة ..

حاول الأخ الأصغر التكفير عن ذنبه بأخذ الابن المغلوب على أمره ، والذى انتظر أن تعطيه أمه قبل موتها إشارة تنفيذ مهمة بالثأر ، لكنها لم تفعل ، وقالت له عندما زارها مع عمه فى سجنها قبل الإعدام :

- انس ، واصفح يا بنى ..

وقبلته ، لكنه لم ينس ، ولم يصفح ، فما يبنى فى سنين لا يهدم فى لحظات ..

ظل مقاتلا صنديدًا لا يشق له غبار ، شحيح العواطف معرض عن الأحاسيس ..

كان الأخ الأصغر كلما رآه ، تذكر ، وتعذب ، ولما روى القصة لكاهن غامض من أصدقائه طلب رؤيته ، وعرض على الأخ أن يأخذه ليرعاه فى كنف معبد ببر (طيبة) الغربى ، معبد سرى منحوت على واجهه رسم بارز لزهرة لوتس بيضاء ..

ولم يكن أمام الأخ الأصغر إلا الموافقة ..

* * *

نهاية قزم شجاع

(١)

عندما انتهت الصحراء ، وشاهد القزم (سنوب) الجبل البعيد بعينيه الذاويتين ، عبر ضباب الفجر المخيم من حولهم ، غمغم فى حنين والدموع تغمر وجهه :

ـ أخيرًا ، أرض الأقزام ..

تساءل (محب) وهو يشير إلى الجبل المقترب :

ـ تقصد أن أرض الأقزام المزعومة تقع وراء هذا الجبل ؟!

وغمغمت (نفرو) فى انبهار :

ـ يا له من مشهد جليل ..

أما (حورى) فلم ينطق بكلمة ، وظل شاردًا بعينيه فى البعيد المجهول ..

وعندما بلغوا السفح ، مسح (سنوب) الدموع عن عينيه ، وقال :

ـ هنا تنتهى الرحلة يا رفاق ..

سأله (محب) :

ـ ألن نعبر بك إلى الجهة الأخرى ؟!

هز (سنوب) رأسه نفيًا :

ـ كلا ، لن يستطيع أحد منكم عبور الجبل معى ، ستعودون الآن إلى دياركم ..

ثم رفع عينيه إلى أعلى متابعًا فى وجد :

ـ .. وأعود إلى ديارى ..

ثم إنه بدأ فى الصعود بالفعل ، تتابعه عيونهم فى شغف حتى اختفى تمامًا فى الضباب ، وعبر الناحية الأخرى ..

وفى الناحية الأخرى ، سمع صوت أغنية حزينة تنبعث من أسفل ..

عرف الصوت على الفور ، إنه صوتها ، فهرول نازلاً يتعثر فى الصخور الناتئة ..

كان أول ما انشقع عنه الضباب هو وجهها ..

وجهها الذى لم يعد كما كان ..

كانت جالسة على صخرة أسفل الجبل ، وقد قابلته بابتسامة قاتلة :

ـ كل العجائز المنتظرات ذهبن إلى ديارهن بعد أن فقدن الأمل ، أنا وحدى التى ظللت هنا ..

جثا على ركبتيه أمامها ، وقال فى سعادة ، متأملاً شعرها الذى استحال إلى ثلج أبيض ، والملامح الطفولية التى ملأتها التجاعيد :

ـ لقد حلمتِ بعودتى اليوم ، أليس كذلك ؟!

افتر ثغرها عن بسمة جميلة ، وهى تهز رأسها فى إيجاب قائلة :

ـ أجل ..

لم يدر من أين يبدأ ، فترك نفسه على سجيتها ليقول :

ـ افتقدتك كثيرًا .. سأروى لك حكايات لى وقعت لى .. أصبح لى اسم الآن ، هو (سنوب) .. يسموننى القزم (سنوب) .. وقد أطلقت عليك اسمًا لم أخبر به أحدًا قبل .. إنه ...

قاطعته وهى تمد سبابتها لتضعها أمام شفتيه :

ـ ش ش ش ش .. اصمت ..

ثم نظرت إليه لتملأ عينيها منه ، قائلة وقد اتسعت الابتسامة على وجهها :

ـ .. دعنى أسمع منك صمتك ، فهو أبلغ مما يمكن أن يقوله لسانك مهما حاول ..

ابتسم للذكرى ، وبكى من قسوته يوم الرحيل ، لكن ..

اليوم يوم الغفران ..

لقد تأبطت ذراعه ، وسارا إلى أرض الأقزام ، حتى ابتلعهما الضباب فى جوفه ، وصوتهما ينطلق بأغنية حب مشتركة ، ليس فيها أثر للمسة حزن ..

* * *